

روايات مصرية للجيب

تاكسي

7

فريق

متميزون



E-BOOK

المتسللون

حسين الطائي

مكتبة فريق (متميزون).
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل لهذا الكتاب



كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصريه للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

سلسلة تاكسي
العدد رقم (07)

المتسللون

تأليف: حسن الحلبي

مقدمة..

اسمي (سامر رمضان)، سائق تاكسي حاليًا، وخبير في الأمور التَّقنية والإلكترونية سابقًا، وعملت مع المخابرات العامة لمدة عامين بدلًا من السجن؛ لما سببته من دمار بعدد هائل من أجهزة الكمبيوتر حول العالم، ذات مرة.

اسمي (سامر رمضان)، متزوج، اسم زوجتي (ديالا)، وابني (كريم) في الصف الأول الابتدائي، ولي جار صحفي اسمه (يوسف)، وقد تعرفت بطريقة غريبة نوعًا ما على رائد الشرطة (منذر خليل)، الذي يريد أن يكون مهمًا بأي شكل، وعلى (ديمتري) عالم الفيزياء الكيميائية الذي يعشق البوم، المتئائب طوال الوقت، وعلى (همام خميس)، الممرض الذي يقول بيتين من الشعر كل دقيقتين.

اسمي (سامر رمضان)، لا شك أنك تعرف أنني قدمت استقالتني من المخابرات العامة، وتفرغت للعمل كسائق تاكسي، بعد أن أصبت بثلاث رصاصات في صدري بسبب إحدى عملياتي القديمة، وبعد أن شعرت بالملل الشديد من كل تلك الأمور التي أشعر أنها مناسبة للأفلام أكثر من الواقع؛ فأنا أكره المطاردات والرصاص ورجال العصابات وقضايا القتل والاعتقال، وما شابهها من أمور لم تعد تثير حماستي.

اسمي (سامر رمضان)، أنت تعلم الآن أنني نلت إعجاب (ديمتري) و (منذر)، وأنهما أخبراني أنني سأعمل معهما في أي قضايا جديدة لهما، بعد افتتاح قسم المخابرات العلمية، والذي أنا فيه مشرف على القسم التَّقني.. سأعمل معهما بصورة رسمية طبعًا، ولكن أمام الكل أنا مجرد سائق تاكسي.

إن كانت هذه هي المرة الأولى لك معي؛ فأنصحك بمراجعة السطور آنفة الذكر، أو الأعداد الستة السابقة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



- 1 -

مضت السيارة الصفراء (الكامري) تشق طريقها وسط سيل من السيارات المناسبة في طوفان على الجانبين.

كان اليوم هو السبت من جديد؛ لذلك فإن استهلال الأسبوع بالنسبة للبعض لا يعني ذلك للبعض الآخر، فلا مدرسة لابني (كريم) اليوم، وهناك قدر محترم من النوم لزوجتي (ديالا)، عزيزتي وحببية درب التبانة، من حد الشُّعْرَى اليمانية وحتى كل تلك الثقوب السوداء العظيمة الخفية! إن التفكير في هذه الموضوعات العلمية يثير شهيتي من أول الصباح، الفطور ينتهي قبل أن يبدأ، أما العمل فلا ينتهي أبدًا كما هو معروف:

- انتظري يا (سامر)! عليك أن تتناول الإندومي بالبيض!

الوجبة الجميلة المحببة للقلب والروح.. من أخبر (مومو فوكو أندو) مخترع النودلز أنني أعيش في هذا الركن من العالم؟! إن اسمه جدير بسد شهية أسد شرس في براري السافانا الواسعة! لكن لا بأس باسمه، فسيد الإندومي هو سيد الجزء المتبقي من قلبي، أقصد بعدما احتلت (ديالا) و(كريم) قلبي كله!

التاسعة صباحًا.. (فيروز) أيتها الجميلة، احكي لنا حكاية جديدة دافئة بصوتك الأكثر دفئًا.. إنها طقوس الصباح، لكن الغريب أن البعض يمارسون طقوس السهرة هنا دون منطق! أرى فتاتين في أزياء سهرة لامعة، ومكياج صاخب، وحلقات في الأنف، تشير لي يد مزينة بعدد لا آخر له من الحلقات الثمينة، أم هي زجاج رخيص؟! شعرت لوهلة أن ركوبهما معي قد يفسد وليمة هدوء نفسي الصباحية.. تجاهلتها خلفي وانطلقت، فتعترضني فرصة أخرى، رجل بتياب كلاسيكية ومنظار شمسي، وحقيبة دبلوماسية أنيقة.. لا! لا أريد هذا! يبدو أنه رجل مهووس بنظافته الشخصية ومظهره العام، ولا شك أنه سيمتنع عن دفع الأجرة بحجة أن المقابل مبالغ فيه.

قلت لنفسني:

- سر في طريقك يا (سامر).

وهنا رأيت، الرُّبُون المثالي لبدء الصباح!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رجل مهيب، لكنه في ملابس عادية، سروال أسود وقميص نظيف، وطابع من البساطة كان ظاهرًا على وجهه، فارقنتني رغبتني في وزن وتقدير أهمية

الزبائن المحتملين الآخرين، عندما رأيته يشير نحوي بإصبعه، وملأني شعور أنه الزبون المثالي في هذا الصباح المثالي!

إنه رجل يوم سبت كامل الأوصاف، سيكون رفيق رحلة طيب، وربما أسمع منه حكايات مسلية.

أتجه نحوي بخطوات واثقة قصيرة، ثم توقف عندما صار ملامسًا لجانب سيارتي الأيمن، فتح باب المقعد الخلفي، ودلف بهدوء، وهو يُملي علي عنوانًا لا يبعد كثيرًا عن مكاننا الحالي.

جلس في وضع مثالي، ككل شيء في هذه الرحلة، وانطلقت أنا بالسيارة:

- (سامر)! تغدَّ جيدًا، واضحك للدنيا! كي تضحك لك!

قال أحدهم هذه العبارة لي منذ زمن، لكنني لا أذكر من هو بالضبط.. هل هذا مقطع من أغنية للفنانة (نجوى كرم).. أم إن الأمر اختلط علي مع عبارة مشابهة قالتها لي (ديالا)؟! لا أعتقد أنني سأنسى أي شيء تقوله (ديالا) لي.

كنت غارقًا في الفكرة عندما سمعت الزُّبون، من المقعد الخلفي، يحادثني لأول مرة، منذ أن دخل سيارتي (الكامري) الصفراء العريضة، ويقول بلطف:

- سأنزل هنا لو سمحت.

استغربت! لأننا لم نصل بعد إلى العنوان الذي أخبرني عنه، فأجبت بلطف مماثل! ظنًا مني أنه لا يعرف المدينة جيدًا، أو أنه وافد أجنبي، بسبب لُكنة غريبة ما، لحظتها بصعوبة وسط كلامه:

- لكن هذا ليس شارع (عبد الله غوشة) يا أستاذي.. سنكون هناك بعد دقيقتين أو ثلاث!

قال بنفاد صبر:

- سيدي، سأنزل هنا لو سمحت! أشكرك.

توقفت بالسيارة على جانب الطريق، ثم تركته ينزل في هدوء، وتناولت منه أجرًا وجدته أكبر مما تستحقه الرحلة القصيرة، هممت بالاعتراض، مخرجًا رأسي من النافذة، لكنه كان قد أسرع مبتعدًا، وأنا أحدث نفسي:

- يا له من أحمق! كان يمكنه قطع المسافة سيرًا على قدميه.. إنها أجرة رحلة إلى مدينة أخرى، وليس عبور شارع ونصف في (عَمَّان) صباح يوم سبت!

تنهدت متعجبًا من تصرفه، ثم نظرت مرة أخرى إلى زاوية الشارع، حيث كان الزبون يسير، لكنني وجدت فراغًا أبيض تمارس الشمس سطوتها عليه،

محاولة التمدد لكي تتلع أي مساحات ملونة بأي صبغة أخرى، سوى صبغة
أشعتها الصفراء اللامعة!

لم يكن هناك أي أثر للرجل المهيب الذي غادر سيارتي لتوه!
نظرت إلى يدي، وألقيت نظرة أخرى على حفنة النقود التي أعطتها لي نظير
لا شيء تقريبًا، ثم عدت لأرى أين كان منذ أقل من لحظة، لا شك في أن
الرجل الكريم قد اختفى بشكل أسرع كثيرًا مما يمكن توقعه أو الانتباه إليه!
إن البعض يسيرون بسرعة كبيرة، هذا أمر مقبول.. لكن كيف تبخر من
الزاوية، دون أن أرى خياله ينحرف يمينًا أو يسارًا؟!
إن كثرة التفكير مضرّة للصحة، ما لم يكن التفكير هو عملك الذي تتقاضى
عليه أجرًا بالأساس، وهو ما لم يكن منطبقًا علي في ذلك الصباح لحسن
الحظ.

إنني اليوم (سامر رمضان) سائق التاكسي فقط لا غير.
كررت العبارة بيني وبينني مجددًا:

- إن البعض يسيرون بسرعة كبيرة!
يجب أن تكفيني هذه العبارة وتزيد.. سوف أشتري بحيرة صغيرة وأملؤها
بالإندومي المضاف إليه البيض.
قل «صباح الخير» أيها الصباح الهادئ.
(فيروز) أيتها الجميلة، صباحك بلا أنين ولا شجن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



في منتصف النهار كان الحر لا يُطاق.

تكدس الهاربون من وظائفهم على الجانبين، في شكل سيل من السيارات، التي يحاول كل منها الفرار من أفواه الجحيم المفتوحة فوق الجنس البشري البائس، وتفتش عن ثغرة تركض من خلالها باحثة عن مكان ظليل تركز إليه، أو فيه، وتطرد شاغليها، ليذهب كل منهم بدوره بحثًا عن ملجأ له ومغتسل بارد.

وسط تلك المعمة كان (يحيى)، الرجل الذي قضى أربعين عامًا من عمره كسائق تاكسي يكاد يحنث بعهدة المقدس مع نفسه، ويطلق لسانه بالسباب على كل السائقين، سواء من سائقي الأجرة أو الخصوصي، الذين حوله، ذلك أنه سئم ذلك الزحام المروري السيئ، ومل البقاء مكانه رغبًا عنه، بينما تشتعل نيران الحر في جسده المنهك، وتسيل شلالات العرق على وجهه المليء بأخاديد زمنية عميقة.

مرت عشر دقائق ثم حدثت انفجاجة استغلها السائقون الأشد مهارة، فدفعوا طوابير السيارات المنتظرة أمامهم، واستخدموا أبواقهم المزعجة أكثر مما يلزم، وتمكن بعضهم فعلاً من النفاذ من ذلك الحصار الخانق، وكان (يحيى)، لحسن الحظ، واحداً منهم!

ويبدو أن الحظ كان إلى جانبه ذلك اليوم، فلم يكد يخرج سالمًا من الخنقة المرورية حتى استوقفه زبون.. كان رجلاً مهندماً، في قميص أبيض وسروال بنفس اللون، لكنه لم يكن يحمل أي أغراض، فلا حقيبة أو حافظة أوراق، أو حقيبة ظهر، ولا أي شيء بالمرة، ولم يكن ذلك وحده الذي لفت نظر (يحيى)، بل إن ملابس الزبون، الذي كان هادئًا أكثر مما يجب، كانت محبوكة عليه بشكل مدهش، إلى حد أنه لا توجد ثنية ولا كسرة واحدة في قميصه أو بنطاله، حتى بدت ثيابه وكأنها فُصلت أو صُبت صبًا فوق جسده، وكأنه تمثال شمعي.

كان وصفه كتمثال من الشمع ملائمًا له تمامًا!

أشار الزبون إلى سيارة الأجرة، فتوقف (يحيى) على الفور، وخلال ثانية واحدة كانت السيارة تنطلق حاملة الزبون في مقعدها الخلفي، كان الحاج (يحيى)، كما يطلق على نفسه تيمناً بأن تواتيه فرصة الحج يومًا ما، رجلاً ثرثارًا محبًا للكلام، وتجاذب أطراف الحديث مع الناس، وكانت مهنته تقدم له فرصًا وفيرة لممارسة هوايته غير الضارة تلك؛ لذلك فلم يكد زبونه الجديد يصبح داخل حدود سيارته حتى بدأ في محاولة جره إلى حوار قصير:

- والله إن الإنسان ليتذكر نار جهنم في ظهيرة لعينة كهذه! عافانا الله وإياكم!
لم يصدر أي رد فعل من الزبون، ولا حتى همهمة مجاملة، فاستطرد الحاج
(يحيى) وصوته يحمل رنة إشفاق:

- يشفق الإنسان على من يُضطرون للسعي من أجل رزقهم في مثل هذا
الجو، مثلك أنت مثلاً.. كان الله في العون!

العبارة الأخيرة كانت فحًا محكمًا، لتجبر الزبون على أن يرد بالمثل مظهرًا
إكباره لسائقي سيارات الأجرة، الذين يسعون في ذلك الجو الجهنمي أيضًا،
غير أن الزبون أفلت منها بسهولة، ولم يعلق بشيء!

عاد الحاج (يحيى) يحاول جذب زبونه الغريب الأطوار إلى تبادل الحديث معه،
لكن كل محاولاته باءت بالفشل، فبقي الأخير معتصمًا بصمته، حتى سئم منه،
فقرر أن يلجأ إلى المذياع عله يجد فيه من يتفاعل مع كلامه الذي لا نهاية له،
ولو عن بعد.. امتدت يده إلى زر المذياع، لكن صوت الزبون خرج للمرة
الأولى ليقول له أمرًا وبطريقة عسكرية صارمة:

- أبقه مغلقًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتجف جسد (يحيى) من الطريقة التي ألقى بها الزبون أمره الغريب، ولم
يدر أبدًا سبب كل تلك القشعريرة التي سرت في بدنه حين سمع صوته، ثم
لم يلبث أن ملأه شعور بالحنق؛ لأن ضيقًا في سيارته تواتيه الجرأة لكي يأمره
بتلك الطريقة.. ثم ما الذي يصيره هو في تشغيل المذياع؟!

مرت لحظات تغلّب فيها (يحيى) على غضبه، الذي كاد يدفعه لأخذ موقف غير
مستحب تجاه الزبون الوقح، ثم سأله ببرود:

- أين تريد أن تنزل عفوًا؟!

كان (يحيى) يتذكر الحي الذي طلب الزبون الذهاب إليه، لكن ذاكرته لم
تسعه باسم الشارع المقصود تحديدًا.

غمغم سائلًا زبونه مرة أخرى عن تفاصيل العنوان الذي يريد، غير أنه لم
يتلقَ ردًا للمرة الثانية، نظر (يحيى) إلى مرآته الأمامية، التي تُظهر له الجالس
خلفه في السيارة، فلم يرَ الزبون الذي معه!

اعتقد أنه تزحزح في جلسته تجاه أحد البابين الأيمن أو الأيسر، مما جعله
يختفي جزئيًا من بؤرة المرآة الصغيرة، فألقى سؤاله للمرة الثالثة، لكنه،
وللمرة الثالثة أيضًا، لم يتلقَ جوابًا من أي نوع!

ضغط (يحيى) على الفرامل، وتوقف بالسيارة بشكل مفاجئ، فقد غلبته أعصابه الملتهية؛ إذ ظن أن هذا الزبون يستهزئ به، ويمنعه غروره حتى من مجرد الرد على أسئلته البسيطة، وحين توقفت العربة تمامًا، نظر العم (يحيى) خلفه، عازمًا على طرد ذلك الزبون القليل الأدب، وعدم إكمال المشوار معه، لكنه، وحين أتم دورة كاملة برأسه، وجد مقاعده الخلفية فارغة، ولا أثر للزبون الذي أركبه سيارته معه بضع دقائق!

فرك الرجل المسن عينيه؛ إذ ظن بهما الظنون، وعاد ينظر آملًا أن يجد ذا الملابس المحبوكة ينظر إليه من الناحية الأخرى، لكنه لم ير سوى ضوء الشمس الشاحب، الذي تنكسر حدته حين يعبر زجاج السيارة الخلفي، وتتحول صفرتة الحارة إلى شحوب أبيض ساخن لكنه غير مؤذٍ، يغمر داخل السيارة بأكمله، ويلقي ظلًا مربعًا على المقعد الخلفي، الذي بدا له وكأنه ابتلع الزبون الصامت الوقح، أو امتصه بشكل ما!

كان الرجل مؤمنًا، وكان إيمانه هو سنده في لحظات خوفه وجزعه؛ لذلك راح يردد برعب:

- بسم الله الرحمن الرحيم! باسم الله! باسم الله!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



- 3 -

في المساء جلست في منزلي، وكنت أستمتع بوجود أسرتي من حولي، زوجتي وابني الغاليين.

كان الكل مشغولاً هذه الليلة، حيث انكب (كريم) الصغير على استذكار دروسه، وحفظ قصيدة شعر عصماء لأحد فطاحل الشعراء القدامى، بمساعدة (ديالا)، التي كانت تتولى التدريس، وهو دور لم تكن تؤديه كثيرًا، ليس لأنها لم تكن تحب مساعدة (كريم) في الدروس، أو تكره المواد الجافة التي يتلقاها الطفل المسكين في المدرسة؛ بل لأنني أنا كان لي رأي آخر، حيث إنني أريد أن يعتمد (كريم) على نفسه مثلما تعودت أنا أن أفعل طيلة عمري.

إن ذيلًا طويلًا من الخبرات أجره من خلفي، جعلني صارمًا جدًّا في تلك النقطة، برغم أنني لم أكن ممن يتكلفون الصرامة في حياتهم أبدًا.. لكن أحيانًا على المرء التنازل ولو لمرة واحدة في حياته، ولكن الحقيقة أنني أنا نفسي، برغم نسبة الذكاء العالية التي أحوزها بحسب كل الاختبارات والتجارب.. أصابني الرعب وأنا أقرأ أول ثلاثة سطور من النص، الذي يُفترض بابني أن يحفظه:

نحنُ في المَشْتاة نَدْعُو الجَفَلَى

لا تَرَى الأَدَبَ فِينَا يَنْتَقِرُ

ابتسمت (ديالا) بسخرية، وهي تراني أدس رأسي بين صفحات الكتاب، محاولًا فقط أن أفهم معنى الكلمات المكتوبة، ولما فشلت في ذلك؛ إذ إنني قررت ألا ألقى مجرد نظرة واحدة على الهامش، أو الشرح المرفق، ابتسمت مرة أخرى، وهمست له بصوت خافت وهي تقصدني أنا في الواقع:

- لعل الشاعر كان يعتذر لزوجته؛ لأنه نسي عيد ميلادها منذ يومين كاملين!

فزعتُ ورفعت رأسي لأنظر مباشرة في عيني زوجتي، كانت (ديالا) تتشاغل بتدريس (كريم) القصيدة الغريبة، اعتمادًا على كتاب خارجي يشرح كل شيء، لكن عيناى تمكنتا من اصطيادها، وإجبارها على النظر إليَّ.

كانت تلك أول مرة يحدث فيها شيء كهذا! لقد نسيت عيد ميلاد زوجتي الحبيبة لأول مرة، منذ أن رأيتها ووقعت في غرامها!

كان الموقف عصيًّا بالنسبة لي، لكن هزة رأس وابتسامة متسامحة منها، أنستاني قدرًا كبيرًا من الحرج والألم، اللذين أشعر بهما، كنت معذورًا على أي

حال، فمنذ أربعة أيام وأنا في اجتماع قمة افتراضي لا ينفص، مع شركائي ورفاقي؛ ذلك أن العالم كان يشهد أحداثًا غريبة وغير متوقعة، على نحو واسع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاءت أول الأخبار المقلقة من شرق آسيا، كالعادة، كان ثمة حوادث متفرقة لسكان محليين في بعض قرى (التبت)، يشكون من ظهور أشباح واختفائها في وضح النهار، (التبت) ساحة النزاع الأبدي بين التين والبير البنغالي، لكن من يبالي بصراعات قديمة المفروض أنها حسمت في مطلع القرن الجديد؟! صحيح أن الأمور لا تزال تترنج على الحافة، لكن ما شأن صراع الهوية في أعلى هضاب العالم بالعفاريت والأشباح؟!

- (التبت) لها ثقافتها الخاصة جدًا جدًا، ولديهم قصص ومعتقدات لا تصدق!

قالها (همام خميس) في أحد اللقاءات الافتراضية الضيقة، كان هناك ثلاثة أشخاص يناقشون الشائعات الآتية من تلك الأصقاع البعيدة، لم أفهم في البداية أهمية هراءات كتلك بالنسبة لعملنا السري الخاص!

- إن الأمور تتوسع بشكل لم نكن نتوقعه، وسوف نشهد العودة إلى أجواء قصص قديمة لا نريد أن نبشها ثانية.. الشائعات والخرافات هي آخر ما نحتاج إليه الآن!

مشروع سري؟!

هل هناك مشروع سري يجري في مكان ما؟!

إن (يوسف سليمان) لا يستخدم تلك الكلمات، إلا إذا كان يعرف شيئًا لا يعرفه الآخرون!

سألته عن ذلك بصراحة، فقال لي الصحفي النشيط بحذر، محاولًا الالتفاف حول الموضوع:

- لا، لا خطط سرية من أي نوع.. أقصد أن حمى تلك الشائعات تشبه حمى الأطباق الطائرة التي غمرت القرن الماضي، لا تنسوا أن تلك الحجج سوف تستخدم ضدنا في الوقت المناسب.. يجب أن يُقطع دابر هذه الخرافة في مهدها.

لكن أي خرافة تلك التي يقصدها؟!

أهي خرافة حقًا، أم إن هناك شيئًا آخر مختلفًا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أفقت على صوت (ديالا) يدعوني إلى العشاء، فجلست على مقعدي المعتاد، وبينما ركز (كريم) نظره في طبقه، المتخم بأصناف الطعام التي لا يحبها، رحنا أنا و(ديالا) نتابع التلفاز، كانت الأخبار معتادة ومكررة، ارتفاع أسعار، حوادث محلية من مختلف أرجاء المملكة، أسعار الذهب والعملات العالمية.

لكن، هناك ذلك الخبر، الذي لا أحد يعرف كيف وجد طريقه إلى نشرة الأخبار الرسمية، جعل كل ما سبقه يبدو عقيمًا وبلا فائدة:

قرية كاملة مهجورة في (التبت)؟!!

يقول الخبر إن مقاطعة (زايلول) جنوب شرقي (التبت) شهدت حدثًا غريبًا، إذ وُجدت واحدة من أكبر قراها، (زايلو)، مهجورة بالكامل عصر يوم الإثنين، أمس الأول!

تحققت السلطات، حين تم إبلاغها بالأمر، من صحة هذا الخبر، وتوجهت قوة من الشرطة وقوات الحماية المدنية لتفقد منازل ومنشآت القرية المهجورة، والتي لوحظت دلائل على أن الحياة قوطعت فيها على نحو مفاجئ جدًا، إلى حد أن بعض منازلها كانت تحوي وجبات طازجة جاهزة للأكل، تُركت على حالها!

تحققت السلطات من عدم وجود عامل خارجي أدى بسكان القرية إلى النزوح الجماعي، فلا يوجد أي بلاغ عن انتشار حالات مرضية، أو وباء غامض، كما لم يُسجل أي نشاط زلزالي في المنطقة.

تقول السلطات إنه تم تتبع بعض العائلات الفارة، وبعض الذين لجئوا إلى القرية القريبة، وحين تم استجوابهم شهدوا بأن سبب هربهم من القرية هو آخر ما يتوقعه أي أحد:

الأشباح التي تظهر وتختفي في وَصَح النهار!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضحكت (ديالا) وهي تسمع الخبر، بينما دفن (كريم) وجهه في طبقه تقريبًا، وظهرت على وجهه معالم الخوف، أما أنا فقد عزفت نفسي عن تناول الطعام، حتى إن التعفف بلغ بي حد أنهم لو وضعوني في نهر مليء بالإندومي بالبيض الآن حالًا، لما فكرت في تذوقه حتى!

كانت الأخبار بالنسبة لي غريبة جدًا، وكل كلمة لها معنى، الأشباح والعفاريت يمكنها أن تقنع رجلًا بسيطًا يسير في الشارع، أو ربة بيت عاملة، تعود من عملها في الساعة الثالثة ظهرًا لتطهو الغداء، وتستمع إلى برامج الطبخ، وطرق العناية بالبشرة، لكنها ليست حجة مقنعة لرجل مثلي، يحوي دفتري عقله ذخيرة من القصص المحيرة، والمليئة بالغموض والأسرار المروعة!

إن الطعام لم يعد كافيًا ليملاً معدتي الآن، فقد انتقل الجوع إلى رأسي، إنني بحاجة لمناقشة تلك الأخبار مع فريقتي.

إنني جائع لاجتماع قمة طارئ الآن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استقبال مستشفى (الملكة علياء)..

الواحدة والنصف ظهرًا..

المكان نظيف ومرتب، وهناك ثلاثون مقعدًا مصفوفة للانتظار، أقل من ثلثها مشغول بالجالسين، فقد بدأ الأطباء مناوبتهم مبكرًا، وتمكنوا من الانتهاء من عدد كبير من الحالات في زمن قياسي.. تبقى أقل من ساعتين على انتهاء نوبة العمل نصف النهارية، قبل تسليم الوردية لفريق العمل الثالث، الذي تستمر مناوبته من الثالثة عصرًا وحتى السابعة مساءً.

وسط الجالسين كان ثمة شخص هادئ تمامًا، وعلى عكس المتواجدين حوله لم يكن يقوم بأي نشاط، فلم يكن يتشاغل بقراءة صحيفة، أو العبث في هاتفه، أو تجاذب أطراف الحديث مع أي شخص ممن حوله، حتى جلسته على طرف المقعد كانت جامدة وصارمة ومعتدلة بشكل غريب جدًا!

(جود) ممرضة مناوبة في استقبال المستشفى، ولديها خبرة واسعة جدًا في عملها، كانت تتولى تسجيل بيانات الحالات، والقيام بعملية مناظرة شفهية سريعة، للتعرف على الأعراض التي يشكو منها كل مريض، وتحديد القسم الأنسب ليراجعه، في حالة ما إذا كان المريض لا يعرف التخصص الطبي الأنسب لفحص حالته.

كانت (جود) في منتصف العمر، امرأة لطيفة وجميلة، ومعتدلة القامة ومتناسقة القوام، وقد ناسبها ثوب التمريض، الذي ارتدت فوقه معطفًا أبيض قصيرًا، تمامًا، كان شعار المستشفى وهويتها الرسمية معلقين على صدرها، وكانت تدور بين الجالسين في الاستقبال، تسجل بيانات كل حالة، وتساءل كل شخص بسرعة عن الأعراض المرضية التي يحس بها، إن وجدت، وبعد أن دارت دورة كاملة حول المكان، لفت وجود المنتظر الصامت الجامد أنظارها، ولولا أن (جود) كانت امرأة عملية وذكية، لأقسمت أن هذا الشخص لم يكن موجودًا، حين أدارت ظهرها نحو المقعد الخالي، الذي يحتله الآن، ومن المستحيل تمامًا أن يدلف شخص ما إلى الاستقبال ويتخذ مقعده، دون أن تلاحظه هي من موقعها ذلك! لكن ليكن، فليس هناك بين المنتظرين من لم تراجعه غيره، تقدمت نحوه وعلى وجهها ابتسامة رسمية متحفظة، لكنها لطيفة جدًا، وهتفت متسائلة برقة:

- ما اسمك يا سيدي، من فضلك؟!

كانت تسأله وتوجه إليه كلامها مباشرة، لكنه لم يجيبها، بل إنه حتى لم يرفع عينيه لينظر إليها!

تنحنت (جود)، واعتقدت أن الرجل لم يسمعها من المرة الأولى، فكررت سؤالها بنبرة أعلى قليلاً، وهي تميل نحوه بشكل طفيف لينتبه إليها، في حالة ما إذا كان ذهنه مشغولاً جداً بأمر ما، في المرة الثانية رفع الرجل الغريب رأسه لينظر في عيني الممرضة مباشرة، لكنه لم يرد عليها أيضاً!

لم تكن تلك هي المشكلة، بل إن المشكلة هي أن نظرته التي سلطها عليها جعلتها تحس ببرودة تغمر أطرافها!

تجمدت أصابعها على لوحة جهاز التسجيل الإلكتروني، الذي تحمله كحافضة كبيرة بين يديها، وأحست بقشعريرة تسري في بدنها كله، وملأت كتلة ثلج فراغ معدتها، التي لم يدخلها طعام منذ إفطار الساعة التاسعة اليوم، حتى كادت تسقط الجهاز الباهظ الثمن من بين يديها.

كان أغرب شيء في الكون بالنسبة لها أن ينظر إليها الرجل مباشرة، ولا يهتم بالرد على سؤالها!

ابتعدت عنه خطوتين وكادت تتجاهله، عندما خامرتها فكرة مفاجئة ملأت قلبها بالشفقة، فهل هو أصم مثلاً؟!

- المسكين!

قالت وهي تهتم بالعودة إليه، عندما ناداها صوت من خلفها، كان صوت أحد زملائها في المناوبة، يقدم لها كشفاً مليئاً بأرقام وبيانات متداخلة، ويطلب منها إرفاقه بسجل المراجعين في المناوبة، لحظة واحدة هي التي استغرقتها (جود) لتتناول الكشف من زميلها، ثم تشكره بهزة رأس سريعة، وتستدير نحو مريضها المسكين الأصم، أو الذي اعتقدت أنه كذلك، لكنها وحين أتمت دورانها حول نفسها، وعادت لتوليه كل انتباهها، عازمة على مخاطبته بلغة الإشارة، التي تتقنها جزئياً، لتطلب منه إطلاعها على هويته الوطنية؛ لم تجده في مقعده!

انقبض قلبها، وراحت تتصفح وجوه الجالسين بحثاً عنه، كانت تخشى أن يكون قد تسلل إلى أقسام الكشف الداخلية، دون أن تسجل بياناته ليُدخل إلى القسم الصحيح، غير أنها كانت متأكدة أن هذا لم يحدث!

هُرعت صوب مكتب الاستقبال، الذي تقتصر مهمته على التأكد من أن أحد الداخلين لا يحمل أسلحة، أو مواد ضارة، وسألت الموظف المناوب عما إذا

كان أحد المرضى الجالسين في الاستقبال قد غادر الآن أمامه.

نفى الموظف ذلك بشدة، وبدا صادقًا تمامًا فيما يقول!

رجعت (جود) إلى مكانها الأول وهي تتمنى أن تكون مخطئة، ويكون المريض لم يبرح مكانه، لكن ما حدث معها كان حقيقيًا تمامًا، فلا أثر لهذا الشخص الصامت الغريب في أي مكان!

كان الآخرون في بهو الاستقبال مشغولين بتجاذب أطراف الحديث، أو إطلاع كل منهم للآخر على الوصفات والنتائج الخاصة بحالته المرضية، فلم ينتبه أحدهم أبدًا لوجود المريض الصامت، أو لاختفائه لاحقًا؛ مما يعني أنه لا أحد بينهم يستطيع أن يؤيد (جود) في ادعائها، لكنها مع ذلك كانت تملك وسيلة للتأكد مما رأته، فقط لتبرهن لنفسها على أنها ليست واهمة.

كاميرات المراقبة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



- 4 -

أيقظني التنبيه المزعج في الفجر، لم تسمعه (ديالا)؛ لأنه كان متصلًا مباشرة
بذهني!

إنها طريقة الاستدعاء التجريبية الجديدة، التي أُدخلت للخدمة منذ أسابيع
قليلة.

قال السيد (قاسم داود)، وهو يبعث برسالة مشفرة مختصرة إلى أعضاء
الفريق:

- إنها طريقة مبتكرة وآمنة تمامًا، علينا أن نشكر الله لأن لدينا عقولًا لامعة
في هذا القسم، لقد لاحظنا أن طرق الاستدعاء السابقة تسبب بعض
المشاكل، وجرى كشفها مرة أو مرتين، هذه نسبة متدنية جدًّا من الخطورة،
لكنكم تعلمون أننا لا نقبل حتى نسبة واحد في المليون من الخطورة، أما
بتلك الطريقة فنحن جميعًا على اتصال بطريقة يستحيل أن يكتشفها أحد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت طريقة (الاتصال الذهني) قد طُورت سرًّا في المخبرات العلمية، وعمل
عليها أكثر من عشرة أشخاص، كل منهم ضمن فريق صغير مستقل، ثلاثة
فرق محدودة تم توزيع (سعيد) و(مازن) و(سارة) عليها، ولم يكن أي فريق
منها يطلع على عمل الآخر، إلا بعد انتهائه ووصوله مرحلة الإتمام المطلوبة.

شككت أنا، الذي لم يحيطوني علمًا بالأمر إلا في مرحلته قبل الأخيرة
بالضبط، في قوة الفكرة، لكن ها هي تثبت صحتها وبشكل كامل؛ لقد
أيقظوني من سباتي، وأخذوني من جوار (ديالا)، دون أن تحس الأخيرة بشيء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرجت إلى الصالة فوجدت الهدوء الشامل، لقد أوى (كريم) إلى سريره
مبكرًا، وكان جهاز العرض التلفزيوني العملاق ساكنًا صامتًا.

طلبوا مني اللجوء إلى مكثبي، حيث أتمتع فيه بقدر كبير من الخصوصية،
فاخترت الانزواء في ركن بالمكتبة حيث من الصعب أن يبحث عني أحد،
جلست مسترخيًا في مقعدي وبدأت الأفكار تُبث إلى رأسي مباشرة.

كان العرض في البداية مملًا، مجرد صورة ثابتة لممر يبدو أنه في مستشفى،
فقد كانت الأبواب البيضاء المصطفة على الجانبين، والأرضيات المصقولة
اللامعة، بل لقد تمكنت حتى من أن أشم رائحة المطهرات القوية التي
استعملت لتنظيف وتطهير المكان! كانت تلك مفاجأة بالنسبة لي، فلم
يلغوني أن تلك التقنية الغربية قادرة على نقل الروائح أيضًا.. شيء عجيب!

لم يكن هناك أي تعليق يرافق الصورة، التي ظلت لبضع دقائق دون أي تغيير، لكن فجأة اقتحم شيء ما ذلك الهدوء الغريب.

راقبت ما يحدث لثوان، قبل أن ينتفض جسدي، وأجدني ألتصق بمقعدي وأنا أحرق بعيني، رغم أن الصور تنتقل مباشرة عبر رأسي، ولا تمر من خلال عيني مطلقاً، لكن الذهول الذي ملأ كل ذرة في كياني جعل عينيَّ تجحطان، وتظلان هكذا لدقائق، بينما كنت أنا عاجزاً عن إغلاقهما.

كان ما يعرض علي غريباً..

غريباً جداً!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في منتصف ظهيرة يوم سبت مزدحم شهد أحد شوارع (عَمَّان)، الأشد تكديساً بحركة المرور، حادث سير، لم يكن حادث سير عادي أبداً، رغم أن الأمر لم يكن يزيد عن شخص بئس تعرض لصدمة عنيفة من سيارة مسرعة، يظهر أن من يقودها لا يعرف شيئاً عن قواعد المرور وقوانينه الصحيحة!

(سعيد) معلم مرحلة أساسية، كان بصحبة ثلاثة من رفاقه، زميل له يناهز الرابعة والخمسين، وكان الثاني، أثناء عبور الطريق، يحدث زميله بسعادة عن الشهور القليلة المتبقية على مدة خدمته، بعد تعديل قواعد الخدمة المدنية، وتنزيل سن المعاش من الستين إلى الخامسة والخمسين:

- كان بإمكانني تسوية أوضاعي منذ عامين أو أكثر، لكنني لم أحب أن أتخلي عن مدرستي وزملائي، وأترككم تواجهون عبء العمل وحدكم بدوني!

كان السيد (نزيه) ممن يحبون التباهي بأنفسهم، ولا يكاد يفوت فرصة ليفتخر بمحاسنه وأخلاقه المشهودة، من خلفهما جاءت معلمتان، إحداهما في منتصف العمر، والأخرى شابة دخلت الخدمة منذ أسابيع قليلة، الكل منخرط في الحديث، بينما يعبرون الطريق إلى الناحية الأخرى.

كان تنبيه الإيقاف الجديد يتهياً للعمل، إنه الإضافة العظيمة المستحدثة لنظام المرور الأردني بعد تحديثه، وهو إشارة ضوئية يصاحبها تنبيه صوتي بنغمة بوق مزعجة جداً، وحين انطلاقها ترغم كل المركبات على التوقف لمدة خمس دقائق في كل مرة، للسماح للطلاب وكبار السن والمشاة بالعبور من أحد جانبي الطريق، إلى الجهة المقابلة.

كان الأمر اعتيادياً ومكرراً تماماً، لكن في تلك اللحظة، وبينما تنطلق المركبات بأقصى سرعتها، قبيل لحظة إطلاق التنبيه الجديد، فجأة اتجه أحد

المشاة إلى قلب الطريق، رجل طويل جدًّا، يرتدي ثوبًا من قطعة واحدة، تغطيه من تحت ذقنه حتى أخصص قدميه، وكان يسير بخطوة عسكرية مستقيمة ورشيقة، فجأة اتجه هذا الرجل إلى منتصف الطريق، مسببًا ارتباكًا في حركة السير، ومعرضًا نفسه لأخطار جسيمة!

انطلقت الأصوات البشرية، مختلطة بأصوات تحذير آية، وأبواق تنبيه السيارات، لتحذره من خطورة ما يفعل، لكنه بدا وكأنه لم يسمع شيئًا، انحدر من يسار الطريق، عابرًا مباشرة وسط السيارات التي تسير بسرعة جنونية، كان يحاول الوصول إلى الجهة اليمنى، حيث وقف المعلمون الأربعة، وهو لا يتلفت يمينًا ولا يسرة!

راح الجميع يحذرونه، وانطلقت صرخات النساء، بينما هو سادر فيما يفعله، وكأنه لا يرى ولا يسمع ما يجري حوله، كانت سيارتان تعبران على جانبيه، وخلال لحظة انفلت من بينهما ليجد نفسه أمام مقدمة عربة زرقاء من نوع (أودي).

كانت السيارة منطلقة بأقصى سرعتها، لكنه وحين استشعر الخطر حاول سائقها كبح جماح السرعة، لكن الوقت كان متأخرًا جدًّا على ذلك، فاتجهت السيارة مباشرة نحوه، واصطدمت مقدمتها المعدنية المخيفة به!

تلقى الرجل الصدمة فارتفع في الهواء، طار وكأنه دمية من القماش، وحلق على ارتفاع بضعة أمتار، ثم عملت الجاذبية عملها العكسي معه، فنادته الأرض، ليسقط سقطة شنيعة، ويتدحرج بين السيارات الكثيرة، التي راح سائقوها يحاولون السيطرة عليها وقد ملأهم الذعر، بينما أوقف سائق (الأودي) سيارته المشثومة بقوة، فأطلقت عجلاتها صريرًا رهيبًا، واندفعت إلى الأمام بقوة القصور الذاتي، ليختفي الرجل الممدد وسط الشارع تحت مقدمتها!

في نفس اللحظة سادت فوضى عارمة على جانبي الطريق، وانطلقت أصوات الصراخ المروعة، بينما أوقفت حركة المرور عرضيًّا، وانطلق التنبيه الصاخب قبل موعده بثوان، في سابقة لم تحدث من قبل أبدًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أصابني الصداع وتاهت عيناى المغلقتان وأنا أحرق في المشهد الذي يبث مباشرة نحو عقلي.

كان هناك تعليق أسمع به بوضوح تام يقول:

- كما ترى يا (سامر)، هذا قسم العناية الفائقة في مستشفى (الملكة علياء) العسكري، وفي الغرفة الثالثة ناحية اليسار كان يرقد الدكتور (شربل)!

هتفت متسائلاً، وقد بدا الاسم لي غريباً وغير مألوف تمامًا:

- من هو الدكتور (شريل)؟!

تهدد رئيس المخابرات العلمية وقال بشيء من الحرج:

- إننا لا نعرف بالتحديد من هو!

ضغطت جفني المغلقين بقوة وهتفت مستنكراً:

- ماذا؟! كيف لا تعرفون من هو؟!

أجابني رئيسي الأعلى مباشرة:

- هذه هي الحقيقة! إنه شخصية غامضة تمامًا بالنسبة لنا، لقد وفد إلى (عمّان) منذ عامين تحت اسم آخر، لا يهم أن تعرفه الآن، والمفروض أنه يحمل جنسية إحدى دول (أمريكا الوسطى)، وقد كانت أوراقه لا تحوي أي معلومات تستحق الاهتمام، مجرد وافد عادي، تستطيع أن تعتبره سائحاً إذا شئت، وقد استأجر شقة فاخرة في أعلى أحياء المدينة من حيث تكاليف المعيشة، لكنه لم يلتحق بأي عمل، ولم يقدم نفسه كمتخصص في أي مجال! فقط كان يجلس في شقته الفاخرة طوال النهار، وفي المساء يخرج لمدة ساعة أو ساعتين، يتجه إلى المتاجر ليشتري سلعاً غريبة، ثم يعود إلى منزله!

قلت وقد نفدت قدرتي على الصبر أكثر من ذلك:

- ربما كان رجلاً وحيداً يعيش حياته بعد التقاعد.. لكن ما نوعية تلك السلع الغريبة التي كان يشتريها؟!

توقعت أن يقول لي ساخرًا إنه كان يتاع كرتونتي بيض كل يوم، وتسعة أرطال من اللحم دفعة واحدة، لكن السيد (قاسم) أجابني منزعجًا:

- أوراق بيضاء للطباعة، كميات هائلة من البلاستيك، أدوية للتخسيس، وبيض فاسد!

في الحقيقة كنت مستعدًا لأن يخبرني رئيسي بأن (شريل) هذا كان يشتري يورانيوم مخصبًا كل يوم! لكن ما سمعته كان أشد غرابة من كل توقعاتي:

- ماذا؟!!

هتفت بهذا بذهول، فقال:

- نعم يا (سامر) كما سمعت، بيض فاسد! كان يتوجه إلى محلات الأغذية ويختبر البيض المعروض للبيع، وكلما وجد واحدة فاسدة اشتراها فورًا، أما البيض السليم فكان يعيده إلى الرف ببساطة!

ابتسمت حينئذ، وقلت للسيد (قاسم) مستهزئًا:

- إنه ليس مجرد رجل يعيش حياة التقاعد.. إنه رجل مجنون يعيش حياة التقاعد!

قال لي رئيسي بصرامة وحزم:

- إنه لا يعيش تقاعده يا (سامر)؛ لسبب بسيط، فهو لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره!

هتفت بدهشة:

- ماذا؟!

ما الذي يقوله السيد (قاسم)؟!

- الدكتور في التاسعة عشرة من عمره؟!

رد السيد (قاسم) بصبر نافذ:

- بعض الأنظمة التعليمية تعمل بنظام التسريع الأكاديمي، حيث يتخطى الطالب عامين دراسيين أو أكثر أحيانًا في سنة واحدة.

بالطبع كنت أعرف ذلك:

- حسنًا، ما أهمية الدكتور (شربل) هذا لتوقظوني من أجله قبيل الفجر يا سيدي؟!

رد رئيسي مباشرة:

- هذا ما نريد معرفته.. إننا نريد أن نعرف مقدار الأهمية التي تجعل شخصًا ما يحاول قتله مرتين!

- كيف؟! لماذا؟!

تساءلت بلهفة وقد تلاشت كل رغبة لي في معاودة النوم، فجاءني الجواب الصادم:

- لقد وجدناه في شقته مطعونًا في قلبه طعنة نافذة! كان من حسن حظه أن الطعنة انحرفت سنتيمترين بالضبط عن موضع القلب، فأخذناه إلى المستشفى...

قاطعته بعد أن فشلت في التغلب على فضولي:

- من الذي أبلغ عن هذا الحادث إذا كان لا يختلط ولا يتصل بالآخرين؟!
ابتسم رئيسي مشجعًا وقال:

- توقعت منك هذا السؤال! لقد أبلغت جارة له بعد أن شاهدت شخصًا يغادر شقته في وقت متأخر، فشكت في الأمر وطرقت بابه عدة مرات، ولما لم يجب استنجدت بالشرطة.

غمغمت بشك:

- أهي مجرد جارة.. أم شيء آخر؟!

كانت تلك نقطة هامة جدًا بالنسبة لي، لكن السيد (قاسم) أجاب منهيًا المسألة بحزم:

- هذا ما سنعرفه من التحقيقات اللاحقة.. لكن المهم أنه أخذ من شقته في حالة غيبوبة، وتلقى العلاج في مستشفى عام، وبدأ يفيق من غيبوبته.. ولكن...!

وصمت، لأستحته بلهفة شديدة:

- لكن ماذا؟! ماذا؟!

كانت تلك من المرات القليلة التي يغلبني فيها فضولي إلى حد أن أجرؤ على مقاطعة رئيسي عدة مرات قبل إنهاء كلامه، لكنه أجاب وهو يتنهد بحرارة:

- لكنه لم يجد الفرصة ليتعافى بعد أن يسترد وعيه.. فقد تعرض لهجوم آخر في قسم العناية الفائقة، وقُتل هذه المرة!

نهضت من مقعدي وقد كدت أطلق صرخة، وتسببت حركتي غير المحسوبة تلك في تشوش الاتصال الذهني، وضعفت الإشارة التي أتلقاها مباشرة، فتموجت صورة السيد (قاسم)، وراح يتكلم بصوت معدني وبكلمات مختلطة ببطء شديد، فلم أفهم شيئًا مما يقول!

سيطرت على نفسي وعدت للجلوس معتذرًا:

- عفوًا يا سيدي.. إن ما تقوله قد أثارني لأقصى حد!

قال لي:

- لا بأس.. لكن عملية الطعن الثانية تلك سببت لنا قدرًا كبيرًا من الحيرة والذهول.

كدت أطرح سؤالًا آخر، لكنني تذكرت ما أقدمت عليه لتوي من إفساد عملية البث الذهني لبعض الوقت، فخجلت من أن أستمّر في المقاطعة إلى ما لا نهاية، غير أن رئيسي، الذي كان يعرفني جيدًا، قال وقد بدأ صوته يتوتر للمرة الأولى خلال تلك المحادثة:

- إنك - ولا شك - تتحرق شوقًا لمعرفة الكيفية التي وصلوا بها إليه في قلب المستشفى ليكرروا محاولة قتله، وينجحوا في هذا فعلًا، لكنني لن أستطيع أن أشرح بالكلام أكثر من ذلك.. عليك أن تلوذ بالصمت الآن، وتشاهد بنفسك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلقت الأبواق المحذرة والصرخات الهستيرية من كل جانب، بينما ركض بعض المارة، وأحد المسعفين المناوبين في مركز الطوارئ الصغير على جانب الطريق، تجاه البقعة التي وقعت فيها الحادثة، وفي نفس اللحظة غادر سائق السيارة المنكوبة مكانه، ونزل ليرى أي مصيبة وقعت على رأسه هذا الصباح.

لا شك أن الرجل، الذي طار في الهواء أمام أعين الجميع، قد مزقه الاصطدام بالسيارة إلى أشلاء، بالتأكيد، لكنه يستطيع بسهولة، ومن خلال تفرغ كاميرات الطريق، إثبات أنه لم يكن الطرف المخطئ في تلك المصيبة اللعينة، بيد أن ذلك لم يكن ما يشغل باله الآن، فكل ما يهمله هو إغاثة الرجل المسكين، الذي اختفى تحت مقدمة السيارة المشنومة!

كان أول من انحنى على الأرض ليقوم بمحاولة إسعاف المصاب هو مسعف متخصص كان يمر بالصدفة، جثا الرجل على ركبتيه وهو يأمر السائق بالعودة إلى سيارته، وقيادتها متراجعًا إلى الخلف قليلًا، لينكشف موضع المصاب كاملًا، أطاعه السائق وتحرك عائدًا إلى سيارته وشحوب الموت يغطي وجهه، لكن صرخات الدهشة التي أطلقها المسعف، والأشخاص الكثيرين المتجمعين حوله، أصابته بالذعر أكثر من الحادثة نفسها!

راح المسعف يقول مصدومًا:

- يا رب السموات! أين هو؟! أين الرجل المسكين؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هُرِعَ السائق نحو سيارته، وأدار المحرك وتراجع إلى الخلف بسرعة، فقد وقع في ذهنه أن السيارة دهست الرجل المصاب، وأنه يرقد تحتها أشلاء بعد أن مرت فوقه! قاد إلى الخلف حتى ترك بضعة أمتار، غير أن المساحة المكشوفة كانت نظيفة تمامًا، فلا بقايا، ولا أشلاء، ولا بقع دماء!

- لا توجد جثة! أين الجثة؟! أين الرجل؟!

انطلق المتجمهرون يعبرون عن دهشتهم وذهولهم، بينما أخفت النساء
أعينهن حتى لا يرين المشهد المرعب للجنة الممزقة، لكنهن لم يلبثن أن
فتحنها على مشهد جمهور كبير يضرب كفاً بكف، ويكاد بعضهم يركض هلعاً، أو
يطلق صرخات الرعب كالأطفال الصغار!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



- 5 -

في شقته البوهيمية العجيبة، كان (ديمتري) يمارس طقوسه اليومية، أي أنه لم يكن يفعل شيئًا محددًا على الإطلاق!

كان يتجول بين تحفه ومقتنياته النادرة، ويتلاعب بحيواناته الأليفة، مقلدًا صوت مواء القطط تارة، وامتظاهريًا بأنه بلبل يصدح في تباشير الصباح تارة أخرى، صحيح أن محاولته الأخيرة كانت فاشلة تمامًا، وتحولت من تغريد بلبل إلى نعيق بومة ركلها أحدهم في مؤخرتها ركلة محترمة، فطارت وهي تزعق لتزعج بصوتها المنكر الأحياء والأموات، لكن (ديمتري) وجد في ذلك أمرًا يدعو للتفاخر حقًا، فمن يستطيع تقليد الحيوانات والطيور مثله؟!!

ورغم أن حيواناته كلها لا تشاركه الرأي، ولم تكن راضية عن محاولاته الخائبة لتقليدها، إلا أن بومته الغالية انحازت إلى صفه، فمنحته هزة رأس مشجعة، وكادت تصفق له بجناحيها، إن كانت تجيد تلك الحركة الصعبة!

كان الإفطار عظيمًا ومتنوعًا، لحم للكلاب، وطعام مجفف للقطط، وجراد بحر للبومة والغرابين، وأسماك مجمدة للطريق، وعشب للأرانب.. ينفق (ديمتري) ميزانية صغيرة على حيواناته العزيزة، لكن لا بأس، فور تقديم وجبات الإفطار ذهب ليأخذ حمامًا منعشًا، وبعد أن انتهى وقف أمام المرأة يمشط شعره الطويل، ويرتب لحيته، ويغازل نفسه بنظرات كلها اعتزاز:

- لو كانت (ألكسندرينا رومانوفا) حية لوقعت في غرامي مرة أخرى، وأعرف جيدًا أنها معذورة!

كان الشبه الذي بينه وبين (راسبوتين) الرهيب مبعث فخر له، حتى وإن كان يخيف الآخرين، الآخرين من الرجال طبعًا، أما النساء فكن يعجبن به على الفور، ويقعن صرعى هواه، أو هكذا كان يحب أن يعتقد:

- أبدو كرجال العصابات الروسية الشرسين، أكثر!

لو كانت إحداهن من بيئة مثقفة أكثر قليلًا لوصفته كمصدر أذى مثالي، أو (توكسيك) كما يقول البعض، غير أنه لحسن الحظ مقرب فقط من بومته العزيزة حاليًا، والبوم لا يعرف مصطلح (التوكسيك) نهائيًا لحسن الحظ!

غير أن إلحاحًا مزعجًا قطع عليه وصلة إعجابه بنفسه، تنبيه استدعاء عاجل، دق متواصل داخل رأسه، فأحس بطنين في أذنيه، كان (ديمتري) يكره تلك الطرق في استدعائه إلى العمل:

- عليهم استعمال التخاطر فأنا رجل موهوب!

ورغم أن تلك الطريقة كانت فعلاً نوعاً من التخاطر العلمي، إلا أنه أصر على استكمال طقوسه وتناول إفطاره، قبل أن يخرج من شقته، متجهاً إلى مقر المخبرات العلمية، لكن قبل خروجه مباشرة ألقى نظرة حب وغرام على مخطوط عتيق، اشتراه بالأمس فقط من بائع متخصص في القطع الأثرية، يعمل خارج إطار القانون، ويعقد صفقاته عبر العالم الافتراضي، مستخدماً مواقع تواصل مظلمة وسرية للغاية، وقع (ديمتري) في حب المخطوط فور أن شاهد صورته الأولى، ودفع فيه مبلغاً محترماً دون نقاش، وقبل خروجه صبيحة اليوم ألقى نحوه قبلة، وعيناه تطلقان قلوباً حمراء في كل اتجاه!

لكن، لحظة..

لم يستدعونه إلى مبنى المخبرات وهو يعمل من بيته دوماً؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت عيناى تتابعان المنظر المذهل الذي أراه الآن:

من نهاية الممر المبهر الإضاءة رأيت شخصاً غريباً يظهر أمام الكاميرات، لم يكن غريباً بالطبع مرور شخص ما في ذلك المكان، لكن المدهش أنه ظهر على حين غرة!

ظهر فجأة!

لم يظهر تدريجياً آتياً من مكان ما، بل تجسد بغتة، وكأنه برز من العدم بلا مقدمات:

- رياه! كيف حدث هذا؟!

سمعت صوتاً فوراً:

- ششششششش!

فعرفت أن رئيسي يمنعني من مواصلة التعليق على ما أرى، تقدم الشخص المجهول ذلك عبر الرواق حتى توقف أمام باب الغرفة رقم ثلاثة، وقف يسار الممر وتجمد للحظة، كانت خطواته غريبة وسيره غير طبيعي بالمرّة، ذكرتني طريقة مشيه بالروبوتات نصف الحية! أو السايبورجات التي كانت تخدم في المنشآت العامة، لكن هذا كان شخصاً طبيعياً تماماً، حدوده ومعالم جسده تدل على أنه ليس مكوّناً من أجزاء آلية، من المستحيل التأكد من ذلك إلا عبر التصوير الطيفي، لكن خبراتي السابقة كانت تسمح لي بتأكيد تلك الحقيقة دون حاجة إلى أي تقنيات إضافية:

- هذا الشخص ليس آلياً، ولا نصف آلي أبداً!

قبل أن تمر اللحظة الثانية كان هذا الشخص قد دلف إلى داخل الغرفة، وانتقل التصوير إلى هناك.

شاهدت اللقطات المسجلة تعرض صورًا له وهو يدخل الغرفة، عبر الباب، الذي بقي مغلقًا!

لم يفتح باب الحجر، بل اخترقه ومر عبره ببساطة!

في الداخل اقترب من الفراش الذي يرقد عليه الدكتور (شربل) هذا، كان الرجل الممدد يبدو في حالة سيئة جدًّا، وكل تلك الخراطيم والأجهزة موصولة بجسده، لفت نظري شيء غريب في ملامح وجه المدعو (شربل)، لكنني لم أستطع تحديده في تلك الثواني القصيرة، قبل أن تسخن الأحداث، وأشاهد الدخيل المقتحم وهو يدنو من الفراش، بلا أي تعبير على وجهه، وفجأة رفع يده، فظهرت آلة حادة في قبضته، لم تكن سكينًا أو خنجرًا أو سيفًا، بل شيئًا طويلًا جدًّا ونحيلًا، وله لمعان غريب، حتى من خلال تقنية التصوير التي تخفي اللمعان والشحوب وخلافه، كدت أنهض من مقعدي صائحًا، لكن حتى رد الفعل البسيط هذا لم أجد وقتًا لأقوم به؛ لأنه خلال جزء من الثانية أغمد هذا الدخيل نصله الغريب عميقًا في صدر الدكتور (شربل)!

طعنة واحدة، وصل بها، كما قدرت، إلى الحبل الشوكي والعمود الفقري للرجل في ضربة واحدة!

- لقد قُطع حبله الشوكي، ولو عاش بعدها لبقى مشلولًا بقية عمره، أو تحول إلى سايبورج، نصف آلي!

انتبهت إلى العبارة الثانية التي قالها رئيسي، فهتفت:

- لكنك قلت إنه مات!

- لا! لقد اختار المصير الثاني.. إننا ما زلنا بحاجة إليه!

كدت أسأله فيم يحتاجون هذا الرجل، وهم على حد قوله لا يعرفون شيئًا عن هويته الحقيقية وعمله، لكن المنظر المذهل التالي، الذي يعرض أمامي، أخرسني وتغلب على كل فضول لدي!

فبمجرد أن أتم الدخيل عمله، استدار بخطواته الآلية الغريبة، وعبر من باب الغرفة، لينتقل التصوير بعدها إلى الممر الخارجي، وهناك عبر الرجل أمام أجهزة التصوير الحساسة بهدوء، والغريب أنه توقف للحظة ليرفع عينيه ويلقي نظرة على إحداها، وكأنه يعرف تمامًا النقاط التي تم تثبيتها فيها!

بدت نظرتة ساخرة ومحتقرة، لكنها كانت حية، حية تمامًا! هذا رجل من لحم ودم، وليس آليًا أو سايبورج نصف آلي أبدًا!

انتهى المشهد بلقطة أخرى، حين اتجه الدخيل إلى طرف الممر المقابل، ثم قبل أن يصل إلى آخره اختفى مرة أخرى كما ظهر، بشكل غريب للغاية، تبخر من أمام آلات التصوير وترك مكانه فراغًا أبيض متوهجًا، وكأنه تبخر حقًا، حتى تخيلت أن هناك دخانًا شاحبًا انطلق منه وهو يختفي في لمح البصر.

ارتميت فوق مقعدي مذهولًا، وانتفض جسدي حين سمعت صوتًا من خلفي يناديني برفق ودلال..

كانت تلك (ديالا)!

- لا أظن أنني تسببت في إيقاظك وأنا أغادر الفراش؟!

كنت أسألها متوجسًا، فقد كنت أكره بشدة أن أتسبب لها في إزعاج، أو أن أقلق راحتها، بعد كل تعبها في المنزل طوال اليوم، لكنها أجابتنني وهي تضع يدها الصغيرة الناعمة على كتفي بود:

- لا طبعًا، أنت لم توقظني.. قلقي عليك هو ما أيقظني!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ليس هناك دخان.. إن عينيك كانتا تخذعانك!

قال (منذر) لي بتهكم خفي، ونحن نتبادل محادثة ذهنية، جمعت بيننا في مساء اليوم نفسه مع قيادات من المخابرات العلمية.

كان السيد (قاسم داود) متغيّبًا عن ذلك الاجتماع المصغر، وقيل إنه يترأس اجتماعًا آخر يختص بقضية أخرى، وقد يوافي (منذر) وفريقه في أي لحظة من جانبه.

كنت مشغولًا بما حدث صبيحة اليوم، وأنا أرى أحداث جريمة محاولة قتل الدكتور (شريل) الثانية، داخل قسم الرعاية الفائقة بالمستشفى، وأتبادل حوارًا مع السيد (قاسم).

إن مفاجأة (ديالا) بظهورها المفاجئ أمامي، لم تقلل من حدة انشغالي بما شاهدته بعيني رأسي من أمور خارقة!

صحيح أن الأمور الخارقة، بصفة عامة، كانت هي حياتي في آخر فترة بشكل ما، إلا أن ذلك الأمر كان مدهشًا جدًّا بالنسبة لي.

أحيلت القضية للتحقيق السري، وترأس (منذر خليل) التحقيقات الجارية، لم أقتنع أنا أبدًا، ولا (ديمتري)، الذي أحضروه على عجل، بأن الأمر يكفيه تحقيق من رجال الشرطة، حتى وإن ترأسه رجل موهوب مثل الرائد (منذر)، لكن الأخير مثلما اعتاد حاول التقليل من خطورة الأمر، وبعد أن تهكم علي بعبارته

السابقة، قال موجَّهًا حديثه إلى أحد قيادات المخابرات العلمية، الذي لم يجرِ تقديمه إلينا مطلقًا:

- لا بد أنهم يستخدمون تقنية خداع بصرية ما، نوعًا من التمويه المرئي الذي يتيح لرجلهم هذا تغطية وجوده في لحظة ما، وإظهار نفسه في لحظة أخرى! أجابه (ديمتري) بتهكم أكثر حدة من تهكمه:

- كلام فارغ!

استدار (منذر) نحوه، وقد انعقد حاجباه غضبًا، وبدا أنه مستعد لخوض نقاش حاد، أو حتى معركة إن لزم الأمر، فتدخلت مهديًا الطرفين، وقلت ملطفاً للأجواء:

- إن صديقنا (ديمتري) لا يقصد شيئًا.

لكن (ديمتري) هتف مستنكرًا ومتحديًا في وقت واحد:

- يل أعني تمامًا ما أقول.. إن هذا ليس رجلًا، بل قاتل، قاتل محترف وخطير جدًّا، ويتحرك مستخدمًا تقنية لا نعرف عنها شيئًا، ثم ألم يفكر السيد (منذر) بنقطة صغيرة هامة؟!

التفتنا جميعًا نحوه، فأردف وهو يبدو مستمتعًا بعجز (منذر) عن الرد عليه:

- إذا كان هذا الشيء يستطيع تغطية وجوده بطريقة ما، فما الداعي لأن يظهر في بعض الأحيان، بينما يمكنه تنفيذ الأمر كله وهو غير مرئي على الإطلاق؟! بالفعل..

كانت تلك نقطة هامة جدًّا، فما ضرورة ظهور الدخيل وتجسده أمام أجهزة التصوير، وكشف نفسه للعيون الراصدة، إن كان بإمكانه إخفاء وجوده كليًا، والقيام بأي أمر يريد وهو خفي عن الأنظار؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مخزن (المؤسسة الأردنية العامة للطاقة والمحروقات)..

أطراف العاصمة (عمَّان).. الثانية والنصف صباحًا..

عمال المناوبة الليلية يستعدون لإنهاء آخر أعمالهم، قبيل تسليم المناوبة لموظفي الفترة الصباحية، الذين يتسلمون عملهم في الرابعة والنصف فجرًا.

المكان هادئ وساكن تمامًا، والحراسة الخارجية متراخية؛ إذ لم يسبق أن تعرض المكان لأي محاولات تخريب أو سرقة، كما أن التصوير الدقيق الذي

يشمل المكان كله، بممراته ومخازنه وصهاريجه العملاقة، يجعل محاولة التسلل إلى هذا المكان أعجوبة من أعاجيب الجنون.

في أحد أطراف المخزن الكبير، الذي يضم صهاريج ضخمة جدًا من الوقود السائل، يقف عاملان يرتديان زيًّا موحدًا برتقالي اللون، وثمة شارة زرقاء مكتوب عليها بخط عربي أنيق وأبيض اللون، مثبتة على ظهر كل منهما.

كان الاثنان من العمال الجدد في الشركة، وخبرتهما لا تزال محدودة، لكنهما يقومان بعملهما جيدًا وبكل إخلاص، أثناء ذلك الوقت كان عدد العمال في المخزن قليل، وعدا الحرس، الذين لم يكن عددهم كبيرًا، والذين اتخذ كل منهم موقعه عند أحد أطراف المخزن العملاق، فإن المكان كان هادئًا، ومعظم النقاط تكاد تكون خالية من أي وجود بشري، أما العاملان اللذان كانا منغمسين في حديث خافت، فلم يكونا يلقيان بالآ أو يتوقعان شئًا يمكن أن يحدث هنا:

- هل تتوقع أن تتم ترقيةنا بعد سنوات طويلة؟!

سأل أحدهما زميله، فأجابه الثاني مطمئنًا:

- لقد عرفت أن نظام الشركة هنا لا يعتمد الأقدميات في الترقية، وإنما العمل الجاد والالتزام، فكلما عملنا بجد أكثر ارتقىنا الدرجات الوظيفية، وزادت مدخولاتنا أسرع!

كاد الثاني يجيبه بشيء ما، حينما لمح فجأة انعكاسًا على بدن أحد الصهاريج المعدنية العملاقة، الذي يوجد على قيد خطوات منهما، ابتلع ما كاد يقوله، وتساءل متشككًا فيما رآته عيناه:

- هل لاحظت ذلك يا (باسل)؟!

أدار الآخر رأسه لينظر خلفه، وهمهم بصوت منخفض:

- ماذا؟! هل ظهر أحد مشرفي هذه المناوبة؟!

رد الأول مرتبكًا:

- لا، ولكن هناك أحد ما مر بجانب الصهريج الكبير رقم خمسة، لقد رأيت ظلّه منعكسًا عليه.

- ربما كان أحد مشرفي المناوبة حقًا.

لم يكن (باسل) مهتمًا بأحد سوى بمشرفي المناوبة، لكن زميله كان يعتقد شيئًا آخر تمامًا:

- أنت لا تفهمني! هذا الشخص مر من خلفنا، ولم أر سوى انعكاس ظله خلف ظلالنا التي تظهر على الصهريج!

رد (باسل) ضاحكًا:

- أعود بالله يا رجل! هذه تخيلات آخر الليل، لا بد أنك مرهق وبحاجة إلى النوم!

لم يكذب (باسل) يتم عبارته حتى سمع الاثنان صوت فرقة، كان الصوت خفيًا، لكن وَقَعَه في مكان خطر كهذا كان كافيًا لكي ينتفضا، ويُهرَع كل منهما وهو يسابق الآخر إلى النقطة التي صدر منها الصوت المكتوم.

في البداية رأيا شيئًا متوهجًا يصدر أزيزًا خافتًا، انحنى (باسل) نحوه ليلتقطه، لكن زميله صاح به:

- احذرا!

وفجأة أشار إلى الصهريج الكبير، القريب من حيث كانا يقفان منذ لحظة، وهتف برعب:

- انظرا! إنه هو ثانية! نفس الظل يمر خلف الصهريج!

رفع (باسل) رأسه بحركة لا إرادية، في نفس اللحظة التي دوى فيها صوت الانفجار، الذي أطاح بهما على الفور!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لأنه يستخدم تقنية تتأثر بدرجة حرارة الجسم، وتمكنه من البقاء خفيًا، ما دام جسده لا يصدر إشارات حرارية مرتفعة، وهو يقوم بمجهود بسيط، أما في حالة القيام بالأعمال العنيفة، وصدور إشارات حرارية قوية، فإن التصوير الطيفي يلتقطه، ويظهر بشكله الحقيقي!

رد عليه (ديمتري) ساخرًا:

- يا سلام!

ما الذي جعل (ديمتري) عاشقًا للتهكم على الآخرين هكذا في الآونة الأخيرة؟!

عندما وجد (ديمتري) أن (منذر) يتهاى ليرد عليه ردًا قاسيًا، راح يتشاءب كفرس النهر العملاق، كدلالة أخرى على أنه لا يأخذ ما يقوله رائد الشرطة، عظيم الثقة في قدراته وآرائه، على مَحْمِلِ الجِدِّ، قال (منذر) غاضبًا:

- لا أسمح لك!

تساءل (ديمتري) وعلى وجهه ملامح البراءة المستفزة:

- ألا تسمح لي بالتأؤب؟!

زفرتُ زفرة حارة، وهتفتُ محاولاً تهدئة الطرفين مرة أخرى:

- دعاكما من هذه الجدالات السخيفة! إننا نواجه موقفًا غير عادي هنا، وإن كنت لا أميل لاستعمال مصطلحيّ (خطير) و(دقيق) لاستعملتهما دون تردد! نريد أن نفهم ماذا يجري بالضبط!

- لا شيء! إنهم مجرد عصابة تملك تقنية إخفاء متطورة صغيرة!

- يا سلام!

كانت تلك الثانية مني هذه المرة، فتدخل القائد، منهيًا النقاش الجانبي بيننا نحن الثلاثة:

- إن الخيط الذي في أيدينا هو الدكتور (شربل)، وقد أعلن الأطباء أنه سيستعيد وعيه، بشكل يسمح باستجوابه خلال أسبوع!

- وماذا نفعل حتى ينتهي هذا الأسبوع؟!

أجابه القائد بزفرة حارة، وبدا أنه هو نفسه غير مقتنع بما يقول:

- سننتظر.

نظر إليه (منذر) مستنكرًا، وكاد يعترض ويشجب، لولا أنه تذكر موقعه هنا، لكنني تساءلت فجأة، وقد تذكرت أمرًا آخر:

- ألم تقولوا إن الدكتور (شربل) اختار أن يتحول إلى سايبورج نصف آلي، بدلًا من الموت؟! كيف تقولون الآن إنه سيسترد وعيه بعد أسبوع؟!

كانت تلك نقطة مهمة جدًّا، وقد اعتقدت أن (منذر) أحس فورًا بالحسد تجاهي؛ لأنني تنبّهت إلى ما لم ينتبه إليه هو، بكل ما يدعيه من حصافة ومبادرة باستنتاج كل شيء، أما (ديمتري) فلم يهتم كعادته، بل راح ينظر بشغف تجاه صورته الظلية المنعكسة على طاولة الاجتماعات، التي تشرق وتلمع بشكل يؤذي العينين، محاولًا أن يرتب أطراف شعره خلسة، هذا بينما كان القائد غير معروف الاسم يقول شارحًا الأمر:

- إنه لم يُفقد بعد، لكن تلك كانت وصيته التي وجدناها مسجلة على صفحة بياناته الطبية، المخزنة على موقع وزارة الصحة الأردنية، أنتم تعرفون أن كل شخص، سواء كان مواطنًا أم وافدًا، يُطلب منه تقديم شهادة صحية، وبياناتًا بحالته وحالته الطبية لتخزن على موقع الوزارة، وتُستعمل حين اللزوم، ولم نجد في صفحة (شربل) هذا سوى اسمه المسجل لدينا، وبيان يُطلب فيه

تحويله إلى سايبورج نصف آلي، في حالة تعرض جسده لضرر جسيم أو حادث ما!

التفتنا نحن الثلاثة، أنا و(منذر) و(ديمتري)، وتبادلنا نظرة طويلة لأول مرة، منذ أن بدأ ذلك الاجتماع النادر الحدوث، وتلاقت أعيننا، التي تألق فيها سؤال واحد، بات يشغلنا نحن الثلاثة بشدة:

- إذن فقد كان يتوقع أن يتعرض لمحاولة قتل؟!

قلت مذهولاً.. فأجابني السيد (قاسم داود)، الذي ظهر على الباب فجأة أمامنا:

- يظهر ذلك!

دلف القائد الكبير إلى داخل الغرفة دون استئذان، فنهضنا جميعاً لاستقباله، وحينناه باحترام، فاتجه نحو المقعد الرئيسي على رأس المنضدة، وجلس بهدوء، لكن منظره كان يعكس إرهاقاً، وربما همماً كبيراً، ولأول مرة لاحظت أن طرف ياقة سترة القائد الأيسر مثني ومنكمش، وهو أمر نادر الحدوث، مما يدل علي أنه لم يكن في حالة طيبة تماماً.. وحين التأم شملنا مرة ثانية، هتفت متسائلاً، وأنا أنظر إلى رئيسي الأعلى مباشرة:

- سيدي.. هل حدث شيء ما؟!

نظر السيد (قاسم) نحوي، وانبه إلى أن عينيّ مثبتتان على ياقة سترته، وطالما أعجب القائد بدقة ملاحظتي، وقدرتي على رؤية أدق التفاصيل، واعتبرهما مصدر إلهام وفخر للمخابرات العلمية، لكنه لم يكن يُظهر شيئاً من تلك المشاعر، كما تقتضي ذلك قواعد العمل، وقال بلهجة جادة وصارمة:

- لقد وقع حادث آخر.. حادث خطير هذه المرة!

تبادلنا نحن الثلاثة نظرة أخرى، ثم ألقى كل منا بانتباهه كاملاً، لنسمع ونعي جيداً ما سيقوله!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



- سيد (يوسف).. ألم يبلغوك بأن رئيس التحرير يطلبك؟!

كانت تلك كلمات سكرتيرة الرئيس، وبرغم جمالها اللافت وكونها لا تتجاوز الثلاثين، إلا أنها بمظهرها الصارم، ومحاولتها اتخاذ مظهر المرأة المهمة جدًّا، وأزيائها الشديدة التقليدية، والتي يغلب عليها اللونان الرمادي والبني، ببرودتهما، وتسريحات شعرها المتمزجة، إضافة إلى طريقتها التي تقطر جدية وحرماً في الكلام؛ كانت تبدو كموظفة ستينية، أو كجدة مسنة من أواسط القرن الماضي، ورغم كل ذلك، إلا أن (يوسف سليمان) لم يكن يحفل كثيرًا بها، أو بما تقول، فرئيس التحرير يطلبه، عادة، كل نصف ساعة، بسبب وبدون سبب، وهو لا يلبى نداءاته المتكررة إلا إذا وجد أن لقاءه به ضروري، خاصة أنه يعلم جيدًا أن سبب كثرة استدعائه إلى مكتب رئيس التحرير، هو محاولة توريته بأعمال الصحفيين الخاملين بالجريدة وإلقائها عليه هو! لكن هذه المرة كان ذهابه إلى رئيس التحرير ضروريًا، خاصة أنه يعرف جيدًا لم يطلبه، ويعرف أيضًا أن تلبية أوامره ستكون مستحيلة!

دلف (يوسف) إلى مكتب رئيس التحرير وهو يشد قامته، ويعدل وضع ربطته عنقه:

- الحمد لله أنني تذكرت ارتداءها اليوم!

ذلك أن (يوسف) لم يكن ممن يهتمون بارتداء ربطته العنق كل يوم، وفي كل مكان يذهب إليه.. استجاب الثاني فورًا، ونهض ليستقبل مرءوسه النشيط، ومد إليه يده مرحبًا مظهرًا عظيم مودته تجاهه، دعاه للجلوس، فجلس (يوسف) وهو يفكر فيما سيقوله للرئيس، حينما يطلب منه ما يعرف أنه سيطلبه حالًا:

- لقد طلبت حضورك عدة مرات يا أستاذ!

تنح (يوسف)، الذي لم يستشعر في نبرة رئيس التحرير لومًا أو بوادر غضب، وهتف بتهديب:

- كنت مشغولًا بالعمل!

- جميل! إن هذا شيء عظيم، وأظن أن صحفيًا نشيطًا مثلك لا بد أن يعرف أي نوع من الأخبار، التي يجب أن نركز اهتمامنا عليها هذه الأيام!

تمامًا كما توقع (يوسف)، لكن كان عليه الهروب من هذا المأزق، فأجاب مظهرًا الغفلة والبراءة ببراعة:

- نعم بالطبع، هذه الأشباح الغربية التي تظهر في (التبت)! لا بد أنه غزو فضائي محتمل!

كان (يوسف) يتكلم ساخرًا، وكان رئيسه يعرف ذلك، لكن ابتسم بدوره وقال بعد أن ضحك:

- غزو فضائي؟! من المريخ أم من زحل؟! حسبتك أعظم نباهة من ذلك يا صديقي!

وقع (يوسف) بين شَقِي الرَّحَى، فلم يجد سوى طريق واحد للهروب: الاستمرار في التظاهر بالغفلة!

انتظر رئيس التحرير أن يعلق الأخير بشيء، فلما لم يفعل قال بلهجة رسمية:

- تلك الأنباء الغربية التي تجيء من عدة أماكن، تقرير إحدى الممرضات في مستشفى (الملكة علياء)، وحادثة شارع (الأمير راشد) الذي اختفى فيه الضحية أمام أعين حشد كبير من الناس بعد أن صدمته سيارة مسرعة، ولم يُعثر له على أثر بعدها، ثم محاولة قتل ذلك الرجل الغريب المدعو (شربل)، وأخيرًا محاولة التخريب الخطيرة التي حدثت في مخزن (المؤسسة الأردنية العامة للطاقة والمحروقات).. كل تلك الأحداث الملتهبة لم تلفت انتباهك؟!

كان رئيس التحرير يستفزه كما أحس، لكن تفصيلاً مهمة واحدة جعلت (يوسف) يشعر بالغضب، أكثر من كل التأنيب الخفي الذي يمارسه عليه رئيسه، فتساءل بدهشة:

- كيف عرفتكم بقصة الدكتور (شربل)، والمفروض أنها تخضع للسرية لأسباب أمنية؟!

حدجه رئيسه بنظرة عميقة، وسأله بذكاء:

- وكيف عرفت أنت أنها تحت بند السرية لأسباب أمنية؟!

كانت تلك نقطة خطيرة.. وجب على (يوسف) استعمال كل ما أوتي من موهبة ليفلت من الفخ الذي أحكم رئيس التحرير اقتياده إليه، فأجاب باستهانة كاملة:

- «لأنني لم أسمع بتلك القصة من قبل، وما دام ذلك لم يحدث فهذا يعني أنها سرية للغاية، وسيادتك تعرف أنه لا تفوتني فائتة، ولولا أنها لم يُرفع عنها النقاب مطلقًا، لعرفت بها قبل أي صحفي آخر في المملكة، وأنت تعرف هذا!

ابتسم الرئيس بوهن؛ إذ كان يعاني إرهاقًا وضغطًا بسبب كثرة العمل منذ الصباح، وأجاب متجاهلاً الخوض في تلك النقطة الأخيرة مرة ثانية:

- إن لنا مصادرنا مثلما أن لك مصادرك يا سيد (يوسف)، أم حسبت أننا نجمع البيض كله في سلة واحدة؟!

كان يزعجه حجه بعض المعلومات والأخبار عنهم؛ لأنه لم يكن يعرف طبيعة عمله الثاني، وحقيقة تعاونه مع المخابرات العلمية، لكن (يوسف) أجاب بلهجة تحذير ودية:

- القنابل لا تُجمع في السلال يا سيدي!

زوى الرئيس بين حاجيه وهتف مستنكرًا:

- ماذا؟! قنابل؟!

كانت لهجة (يوسف) حادة بدون أن يقصد، فشعر رئيس التحرير أنه يحذره بشكل قد يصل إلى التهديد المبطن، فورًا تدارك الصحفي النشاط خطاه وقال معذرًا وموضحًا مقصده الحقيقي:

- إننا لسنا مجرد صحفيين ننشر أخبارًا يا سيدي، فقط لنثير اهتمام القراء، بل نحن أيضًا مواطنون نحمل أمانة على عاتقنا، ولدينا قَسَم بأن نُؤدي أعمالنا دون أن نضر ببلادنا، أو نشوه سمعة الآخرين، وكل تلك الأخبار والحوادث التي تكلمت عنها لها تفسير ما بالتأكيد، وما دام لم يعلن بشكل رسمي فذلك يعني أن هناك أسرارًا قد تكون خطيرة خلفها، والمسئولية والأمانة التي نتحملها أمام الله تحتم علينا أن نتأكد أن نشرنا لها لن يتسبب في ضرر يَحِق ببلادنا، أو يؤدي إلى افتضاح أسرار قد يكون الكشف عنها مؤذيًا وخطيرًا الآن!

فكر رئيس التحرير للحظة، وبدأ أنه مقتنع إلى حد ما بما يقوله مرءوسه الفذ، لكن حاسته كصحفي مخضرم، ورغبته في ألا تسبقه صحيفة أو وسيلة إعلامية أخرى إلى نشر تلك الأحداث، والربط بينها، تغلبت عليه في النهاية، فوجد نفسه يقول بحزم:

- إنك تتحدث بلسان رجل مسئول يهتم بمائة موضوع بنفس الوقت، أما أنا فليس لي في الدنيا سوى هم واحد: وهو أن تصبح جريدة (المرايا) هي الجريدة الأولى في البلاد.. ذلك لن يتم إذا تركنا الآخرين يسبقوننا، أظن أنك تتفهم ذلك الأمر، وتشاركني فيه باعتبار (المرايا) بيتك أنت أيضًا.. أم إن لك رأيًا آخر؟!

كانت المناقشة عقيمة كما كان واضحًا أمام (يوسف) سريعًا، فهذا الرجل، رئيس التحرير، يتحدث عن مصلحة صغيرة محدودة، بينما كان الآخر، بعد كل التجارب الغريبة التي مر بها، يدرك أن كل خبر صغير، أو كبير حتى، قد يكون وراءه ما يكدر صفو أمة بأسرها، أو يعطل نشره سير العدالة، ويسبب أخطارًا

جسيمة لنظام كامل؛ لذلك فإنه لم يجادل، بل عاد إلى مكتبه بعد أن قال لرئيسه دون عدائية أو تحدُّ:

- أجل، أتفهم الأمر جيدًا، وأعتقد أنك تتفهم الأمور أيضًا بطريقتك الخاصة جيدًا جدًا!

لم يفهم رئيس التحرير العبارة الأخيرة، لكن الصحفي النشيط لم يشرح له شيئًا، تركه خلفه يحسب الأمور بطريقته، وأجرى اتصالًا واحدًا، وبعد أقل من ساعة وصل إلى رئيس تحرير جريدة (المرايا)، في نفس الوقت الذي وصلت فيه إلى مقار الصحف والإذاعات والقنوات الخاصة والرسمية، وأمر مشابهة.. كان الأمر واضحًا ومباشرًا من مكتب المدعي العام:

حظر النشر في قضية الدكتور (شريل)، وبقية الأمور الأخرى التي جرت في نفس التوقيت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من الصين جاءت أنباء جديدة بعد بضع ساعات، قيل إن بعض المقرات الحكومية، والمؤسسات الخاصة، والمنشآت التابعة لأفراد؛ قد تعرضت لعمليات اقتحام من قبل متسللين غير مرئيين!

كانت الأخبار غريبة، لكنها لم تكن قابلة للتصديق ما لم تأت من الصين نفسها! - لقد أصبحت الصين موطنًا للأخبار الشاذة والغريبة، العالم يتوقع منهم أي شيء، لكن جو الأشباح والأرواح الخفية هذا رخيص ومبتذل فعلاً!

كان ذلك تعليق أحد المراسلين الأجانب، الذين يعدون تقارير يومية عاجلة، بعضها يتم على مدار الساعة، حول انتقال ظاهرة الأشباح الخفية من مقاطعة (زايبول)، إلى بقية مقاطعات (التبت)، ثم إلى داخل الأراضي الصينية نفسها!

- هل يكون الأمر وباءً جديدًا يجعل الناس يمرون بحالات نفسية معينة، ويتخيلون أمورًا خارقة وغير مألوفة؟!

لم ينس العالم بعد أنه من الصين نفسها انطلقت شرارة وباء (كورونا)، الذي صدع العالم، وتسبب في خسائر فادحة على المستوى الاقتصادي والإنساني، وأعاد رسم خريطة العلاقات البشرية، ولم يكد يتم السيطرة الكاملة عليه بعد!

لكن الأخبار تلك المرة كانت أشد إثارة؛ لأن الأمر لم يعد مجرد ظهور، أو ملاحظة أشخاص يختفون ويتبخرون في وضوح النهار، بل ترافق مع حالات تخريب، واقتحامات مقصودة، تترك خلفها آثارًا مادية يمكن ملاحظتها، وقياس الضرر المتخلف عنها!

- إنه سلاح خفي تستعمله (الولايات المتحدة) لعرقلة تقدم الصين ونموها السريع! إنها مجرد حرب غير شريفة!

- وماذا عما يحدث في بقية أنحاء العالم؟!

إن كان الأمر موجّهًا ضد الصين تحديدًا، فما سبب انتشار الظاهرة في أنحاء أخرى من العالم؟!

المشكلة أن الحوادث الجارية في كل مكان كان لها طابع ما، بينما تشهد أراضي (الأردن) الأحداث بطابع آخر مختلف!

هل يعني ذلك أن المملكة هي المقصودة تحديدًا بذلك وليس الصين!

أم إن الظاهرة انطلقت أصلًا من (الأردن) دون أن يعرف أحد؟!

كانت تلك الاحتمالية الأخيرة تقلقني الآن وأنا أسمع، وأقارن الأخبار المختلفة، والمتضاربة، وفي نفس الوقت أتذكر بدهشة ما قصته (ديالا) على مسامعي صبيحة اليوم، قبل خروجي إلى عملي المعتاد، كسائق تاكسي عادي، في شوارع (عمّان) الصاخبة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ثلاثة أيام أخرى فتح الدكتور (شربل) عينيه للمرة الأولى، منذ تعرضه لمحاولة الاغتيال في شقته.

كانت حالته كبشري تام الآدمية قد أصبحت خارج السيطرة، توقف قلبه ومعظم أجهزته الحيوية عن العمل، ولكن تم تعويض كل الأعضاء التالفة بأخرى مصنعة آليًا، ومزودة بأنظمة تحكم دقيقة، تتيح لها العمل بدلًا من الأجهزة الطبيعية..

الدماغ الذي تضرر جزئيًا، بسبب محاولة الاغتيال الثانية، التي تمت في غرفة العناية الفائقة، ونجم عنها توقف عمل القلب، وبالتالي موت جذع المخ، وبدء عملية التحلل السريعة، قبل تدارك الأمر بواسطة الطاقم الطبي.. أجمعت آراء المختصين على كونه لم يعد صالحًا بشكل تام؛ لذلك تم استبداله هو الآخر بدماغ إلكتروني فائق الحساسية، تمت زراعته بعملية جراحية بالغة الدقة والتعقيد..

بقية أعضاء الجسم كانت في حالة متوسطة، فأُبقيت كما هي دون استبدال، مع إجراء عمليات لإصلاح الأجزاء التالفة منها، كل ذلك العمل الشاق لم يستغرق أكثر من يومين، بعد قرار الحكومة الأردنية بتنفيذ وصية الدكتور (شربل)، المحفوظة على موقع وزارة الصحة، وتحويله إلى سايبورج نصف

آلي، بعدما أجمع الأطباء المراجعون لحالته على أن عودة جسده للعمل
كإنسان طبيعي مستحيلة، تحت أي ظرف من الظروف!

كانت ذاكرة الدكتور (شربل) الطبيعية قد نُقلت كما هي، من خلال عملية بث
لا ينقطع بين الدماغ التالف الأول، والدماغ الإلكتروني الجديد، مما يعني أن
هناك أملًا كبيرًا في أن يتذكر كل ما مر به في حياته السابقة، وإمكانية
استجوابه حول محاولتي الاغتيال اللتين تعرض لهما، والمتسلل الذي يختفي
جزئيًا، الذي نفذ العملية الثانية، ومعرفة كل تفاصيل قصته الحقيقية إن أمكن.

شكك بعض الأطباء وعلماء السايبورج في الاحتمال الأخير، معلنين أن
الحصول على صورة كاملة من الذاكرة البشرية الأولى شبه مستحيل، وأن
المريض، على أحسن الظروف، لن يستطيع تذكر سوى ما بين 20 إلى 60
بالمائة من ذكرياته، قبل التحول إلى النظام نصف الآلي، لكن رجال
المخابرات العلمية، الذين وضعوا الحالة تحت تصرفهم، منذ ظهور تسجيل
تفاصيل محاولة القتل الغامضة الثانية، قرروا التذرع بالأمل، وتمنوا لو أن
(شربل) تمكن من تذكر كل شيء، على الأقل فيما يخص الأيام الأخيرة قبل
قتله كأدمي، وتحوله للعيش كنصف آلي؛ إذ إنهم كانوا متيقنين أن هذا الرجل
يحمل مفاتيح اللغز، وبإمكانه شرح ظهور المتسللين الخفيين هؤلاء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت ملكتي (ديالا) بطبعها لا تميل إلى تصديق الشائعات، ولا الجري خلف
القصص الخارقة، ذات الطبيعة المبالغ فيها، لكن ما راحت ترويه على
أسماعي في تلك الساعة كان محملاً بأجواء الخرافات والقصص الخرافية
التي لا تصدق!

قالت لي وهي تضع أمامي طبقًا عملاقًا من المنسف بالجميد الكركي، تحت
أنفي، كنوع من الإغراء والتحب:

- ذهبت إلى السوبر ماركت اليوم، واشتريت لحمًا، وحليبيًا، وأنواعًا مختلفة من
الأجبان، وأكياسًا للثلاجة.

- أها.. أها.

قاطعتها محاولًا حثها على أن تتجاهل هذه الجزئية، وتدخل إلى التفاصيل
المهمة رأسًا:

- إحم.. حسنا!

قالت محرجة، وهي تهز رأسها الفاتن، فيتحرك شعرها المحبب كدوامة من
ماء صافٍ رقيق حول الرأس الصغير الجميل، وأردفت مصححة سير حديثها:

- المهم أنني، وبينما كنت أدفع عربة التسوق أمامي، وأعبر ممراً واسعاً اصطفت على جانبه أصناف مختلفة من المنتجات الورقية والمناديل، اصطدمت بشيء احتك بذراعي اليسرى.

قلت بسرعة، وأنا أعقد حاجبي غضباً؛ إذ ظننت أن وغداً ما تجرأ على التحرش بها:

- هل كان رجلاً؟!

ابتسمت بدلال، حين لاحظت نظرة الغضب الممزوج بالغيرة على وجهي، وأجابت مطمئنة:

- لا! لم يكن رجلاً!

- الحمد لله.. امرأة إذن فلا بأس.

- ليس امرأة أيضاً!

- حقاً؟! ما هو إذن؟! طفل صغير كان يركض في الممر؟!!

فاجأني حين هتفت بصدق شديد:

- والله لا أعرف!

- كيف لا تعرفين؟! ألم تري هذا الذي احتك بك؟! هل عجزت عن معرفة ما هو بالضبط؟! لا أفهمك!

كنت أسألها فأجابت فوراً:

- لكنني لم أراه مطلقاً!

- ألم تنظري نحوه؟!

هزت رأسها ثانية، وهذه المرة بدت في عينيها نظرة حيرة، وربما خوف، وقالت:

- نظرت، ودققت النظر، فلم أر شيئاً!

اتسعت عيناى وكدت أطرح سؤالاً آخر، لكنني وجدتها تسترسل شارحة الأمر:

- التفئت ناحية اليسار حين أحسست بشيء يحتك بذراعي فلم أجد أحداً، في البداية اعتقدت أنني احتككت بأحد الأرفف، لكن صف الرفوف كان بعيداً عني بما يكفي، تجاهلت الأمر ومضيت في طريقي، مشيت والعربة المحملة بالأغراض أمامي، حين توقفت لأنني أحسست بشيء يضربني على ظهري!

هبت من مكاني ساخطاً:

- هذا متحرش قذر يتلاعب بك، سوف أحصل على تسجيل كاميرا ذلك السوبر
ماركت، وسوف أجد ذلك الوغد وألقنه درسًا لا ينساه بقية حياته!

ابتسمت (ديالا) بزهو، لكنها قالت فورًا مصححة لي خطأ ظني:

- اهدأ، فلم يكن متحرشًا ولا أي شيء آخر، فعندما نظرت خلفي لم أجد أحدًا
غيري في قسم المنتجات الورقية كله!

- ماذا تقصدين؟!

- أقصد أن ذلك الذي احتك بذراعي، ثم ضربني على ظهري، لم يكن ظاهرًا
أمامي! كان غير مرئي!

يا إلهي!

تلك القصة اللعينة مجددًا.

لكن مع زوجتي هذه المرة!

قلت لها وأنا أعرض تبريرًا أعرف أنه مضحك وغير معقول:

- لا تهتمي، لا بد أنك كنت واهمة، أو أن هذه مجرد تخيلات، ربما لم تنامي
جيدًا الليلة الماضية، واستيقظت مبكرًا جدًّا لهذا اليوم، والواحد فينا حين
يكون مرهقًا سيمارس دماغه معه الألاعيب!

لم تكن (ديالا) من صنف النساء اللاتي يسهل خداعهن واستغفالهن؛ لذلك
هزت كتفها ببساطة، وتركتني متجهة نحو المطبخ، لتحضر لي كوبًا ثانيًا من
الماء، بعد أن تجرعت الأول في شربة واحدة، لكنها قبل أن تغيب في الداخل،
ليس لوقت طويل كما أتمنى، توقفت للحظة لتقول لي وهي تبتسم ابتسامتها
الدافئة المعهودة:

- (سامر) حبيبي.. لم أكن مرهقة، ولم أكن أتخيل..

كنت متأكدًا تمامًا من أنها لم تكن أيًّا منهما.

توقفت اللقمة الجديدة من (المنسف) في حلقي، ولم أستطع ابتلاعها ولا
الاستمتاع بها بعدها!



- 7 -

من خلف باب زجاجي سميك وقفنا نحن، وكنا ثلاثة أشخاص وحسب، نراقب تلك العملية المذهلة، عملية تشغيل الأجزاء الآلية التي تم استبدال أعضاء جسد الدكتور (شربل) التالفة بها.

كان الأمر غريبًا، وغير مفهوم بشكل كامل بالنسبة لنا، صحيح أنه كان لدينا إمام عام بفكرة (السايبورج) نصف الآليين، لكننا كنا بحاجة إلى شرح أكثر، وهذا ما تطوع السيد (قاسم) بتقديمه إلينا:

- طبعًا أنتم تعرفون الفكرة العامة للسايبورج؛ إنه ببساطة كائن نصف إنسان ونصف آلي، الفكرة لا تزال جديدة وغير مألوفة، وربما شاذة أيضًا، وقد بدأت الفكرة كخيال أدبي محض، شخصية مصورة في مجلات الخيال والقصص المصورة، لكن سريعًا ما بدأت الفكرة تتجسد على أرض الواقع، وأول حالة (سايبورج) حقيقي حدثت في بريطانيا عام 2014، صحيح أن الفكرة لا تزال غريبة رغم كل شيء، لكننا، بفضل أبحاثنا وتجاربنا السرية، نستطيع الآن تقريبًا تعويض أغلب الأعضاء البشرية التالفة، أو المفقودة، بأعضاء آلية سليمة، وتعمل بكفاءة عالية.. هذا ما نحن بانتظار مواجهته، بمجرد أن نعبر هذا الباب الزجاجي!

كان هذا الرجل، الذي يوشك على التحول إلى إنسان نصف آلي، غريب الشكل جدًّا، فبرغم التقرير السابق الذي تلقينته، ويؤكد أنه لا يتجاوز التاسعة عشرة، إلا أنه بدا لنا كهلاً، وبرغم بنيتة القوية، الظاهرة من خلال ساعديه وصدره المكشوفين، إلا أن مظهره العام كان كأنه تجاوز مرحلة النضج البشري، وتخطاها إلى فترة الوهن الجزئي المصاحبة لنهاية مرحلة الكهولة، وبداية الشيخوخة.

هل لذلك الأمر أهمية ما؟!

في الحقيقة، فإن انطباعي الأول عن شخصيته تلاشى، بمجرد أن سمعت الأزيز المدهش للدوائر الكهربائية المعقدة، وزاغت عينا من لمعان الإشارات الكهربائية المتداخلة، وهي تنطلق في موجات متتابعة، ثم تتجمع في شكل سحابة رقراقية، لأطرافها لمعان يؤدي العينين، وكانت تلك كلها بدايات تنفيذ أوامر التشغيل.

- إنهم يستعملون نسخة مطورة ومحسنة من تقنيات السايبورج!

قالها السيد (قاسم) دون أن يلتفت نحوي، أو يحول عينيه عن متابعة التجربة المذهلة التي تجري أمامنا، فسألته:

- هل هي متاحة للتداول؟! وهل سمح لنا مطوروها باستعمالها في حالة الدكتور (شربل)؟!

لم يكن لدي معرفة كافية بتلك التقنية المدهشة، لكن رئيسي أجاب بصوت مشوب بالفخر:

- لم يسمح لنا أحد باستغلالها! لأننا نحن من طورناها! إنها إحدى منجزات تجاربنا العلمية الخاصة!

كانت تلك معلومة جديدة علي تمامًا، فشرعت أستفسر عن الظروف التي تم فيها تطوير التقنية، وكيفية عملها، وهل هي مصنفة تحت بند السرية المطلقة! أم ستكون متاحة للتبادل مع الدول الشقيقة والصديقة بشكل علني!

كل تلك الأسئلة لم أتلق عنها أي إجابات من السيد (قاسم)، أو من (ديمتري)، الذي كان يقف صامتًا مشدوّهًا على الطرف الآخر من الممر، تاركًا مسافة كبيرة بيننا وبينه، باستثناء الجزئية الأخيرة، التي رد عليها السيد (قاسم) باقتضاب، وهو يلصق وجهه بالزجاج الذي يفصل بيننا، وبين غرفة الجراحات الآلية، قائلاً بلا اكتراث:

- إن لأشقائنا تجاربهم الخاصة في ذلك المضمار، لن ننتظر طبعًا أن ينتهوا من تجاربهم الخاصة، لكن عندنا خمس أو ست دول عربية يمكننا أن تدرك معنى ما نقوم به هنا الآن!

لم أفهم بدقة المقصود من العبارة الأخيرة، وهل يعني بها تجربة تحويل الدكتور (شربل) إلى سايبورج، أم إنه يقصد القضية الغامضة التي نمر بها برمتها؟!

لم يقدم رئيسي شرحًا إضافيًا، ولم أنتظر أنا حتى أحصل عليه؛ لأنني قررت أن أبدأ تحقيقاتي الخاصة، وأن أحاول معرفة ما الذي يحدث هنا بالضبط!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلق دخان السجائر الكثيف في سحابات قاتمة، راحت تدور في سماء الغرفة، محولة المساحة الواسعة، التي يغلب عليها اللون الأبيض الشاهق، إلى أفق مكتوم، تنحبس فيه الأنفاس الحارة، التي جعلها الدخان تبدو وكأنها زفرات فوهة بركان خامد، يتهيأ لإطلاق حممه والثورة من جديد بعد طول صمت وركون إلى الهدوء والسلام!

كان في الغرفة كلها، على اتساع مساحتها، رجلان فقط، متباعدان، يجلس كل منهما على طرف من المكان، أحدهما الذي يحتل الطرف الأيمن كان

سميًّا ويميل إلى قصر القامة، قامته لا تتعدى المائة والأربعين سنتيمترًا في أحسن الأحوال، رأسه ضخّم لامع بلا شعرة واحدة فوق جلده الأبيض المشدود، وتأكيدًا لقصره فإن أطراف قدميه لم تستطع التلامس مع الأرض، بينما يجلس فوق مقعد عادي، وخلفه رفوف مكتبة عارية، لم يكن على واحد منها كتاب أو مجلد واحد!

أما على الطرف الأيسر فقد جلس شخص على نقيض الأول تمامًا، كتلة بشرية ضخمة قبيحة، طوله قد يتجاوز المتر والتسعين سنتيمترًا، إن لم يبلغ المترين دون أدنى عناء، وقفصه الصدري عريض بشكل لافت للنظر، رأسه يغطيه شعر خفيف جدًّا، من خلال فراغاته يظهر جلده أملس ناعمًا خاليًا حتى من بقايا جذور الشعر، فمن الواضح أنه يسير نحو الصلع الكامل بسرعة الصاروخ، وهذا لم يكن أمرًا جيدًا؛ لأن تحول ذلك الكائن الضخم إلى جسم هائل عاري الرأس سيشكل عبئًا إضافيًا على مظهره المخيف، سيبدو مثل حبة بطاطس ضخمة، أو عملاق مشوه من أبطال أحد أفلام السيرك الذين يثيرون الهلع، لكن برغم مظهره المخيف، فقد كان له صوت ناعم مشروح، وعندما يتكلم تحس أنه امرأة صغيرة تتحدث وهي متنكرة في زي رجل.

كان الصوت متناقضًا مع بنية الجسد تناقضًا تامًّا، وكان شيئًا مثيرًا للسخرية أن تراقبه وهو يتكلم، حتى رفيقه، الذي كان يضمّر له كل مهابة واحترام، ممزوجين بالرعب من شراسته وشره المعروفين، لم يستطع دائمًا أن يخفي نظرات التهكم، وهو يسمع الكتلة البشرية العملاقة، وهو يوجه إليه الأوامر، بذلك الصوت الغريب:

- ماذا يقولون حول ذلك الأمر؟!

كان العملاق يسأل، لكن بلا اكتراث، فيبدو أنه يعرف جواب السؤال مسبقًا:

- لا شيء! إنهم لا يرون طرف الحبل ليسحبوه ويروا ما في نهايته، إنهم يتخبطون!

كرر الضخم الكلمة وكأنه يتلذذ بتذوق حروفها:

- يتخبطون؟!

قال له:

- نعم، يحققون هنا وهناك دون هدى، ولا يعرفون عما يبحثون بالضبط، حتى الصّحافة دخلت على الخط.. وتلك الشائعات حول الأشباح! رباها! كم كانت فكرة عظيمة!

انطلق الأول يضحك بمجرد أن سمع العبارة الأخيرة، كان ضحكًا متواصلًا له رنة متقطعة مشروخة، كان الرجل مستمتعًا للغاية، حتى ضحكاته، بصوته المثير للسخرية، كشفت عن كم التلذذ الذي يتذوق بها كل عبارة يسمعهها، وهي تخرج من فم مساعده المطيع دومًا:

- لكن هل يقبع هؤلاء تحت السيطرة المطلقة لنا؟! إنهم يمتلكون إراداتهم، وهذا خطأ فإ...

تجراً المساعد على مقاطعته، وهو يقول رافعًا سبابته:

- حتى حين!

- نعم، حتى حين! لكن إلى متى؟! هذه ألعاب صبيانية سخيفة، والتجارب لها أبعاد أكبر من ذلك.. إننا لا نحصل على كل تلك الأموال لنمارس دورًا تافهًا يحب السحرة أن يلعبوه في حفلات أعياد الميلاد للأطفال! هل تفهمني؟! لن تنفع هذه الحيل في الحرب، يجب أن نضرب ضربة تتأكد بها من القدر الذي يعرفونه عن الأمر!

- لكن...

- لكن ماذا؟!

- التجارب! أقصد...

بروتينية هتف العملاق:

- فهمت! التجارب لا تزال في بدايتها، والأرض لا تتسع لمشروع بذلك الحجم.. حتى الدول العظمى ستجثو عند أقدامنا لنبيع لها مشروعنا العظيم!

انتظر الآخر بلهفة قاتلة أن يسمع بقية العبارة الأخيرة الغامضة، وكان يأمل في سماع كلمة واحدة تطمئن فؤاده، إنه بعكس الثاني لا يحب مداعبة الأخطار، ولا استفزاز السلطات، وهو يرى في كل تلك الأمور الصغيرة ألعابًا سخيفة لا معنى لها، إنه يخاف مما هو آت، لكنه، في نفس الوقت، ليس صاحب الكلمة العليا هنا، الآخر هو من يملكها بكل أسف!

- لكننا لن نفعل!

ارتجف جسده الضئيل، وسرت في جسده رعشة هائلة، حتى إنه كاد يقفز من فوق مقعده، معرضًا نفسه لخطر جسيم، في حالة سقوطه من موضع جلوسه إلى الأرض، التي تفصله عنها مسافة ليست مأمونة تمامًا، غير أنه تماسك وحاول أن يكون لطيفًا، كجرو مهذب، وهو يسأل الآخر مظهرًا أنه يريد

أن يفهم وحسب، لا يعترض ولا يفكر في الاعتراض، بل يريد أن يفهم ما يجري هنا فقط:

- إذن، فيم كل ذلك؟!

مرت فترة ليست بالقصيرة، أطلق الثاني خلالها كمية لا بأس بها من دخان السجائر، التي يدخنها بكثافة غير طبيعية، ثم تنهد وقال مظهرًا غضبًا ممزوجًا بقدر كبير من السخرية المهينة الجارحة:

- إن المسئولين دائمًا جنباء.. دائمًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطراف العاصمة الأردنية (عمّان)..

مخزن سري من مخازن الأسلحة التابعة للجيش الأردني..

الثانية والرابع من صباح يوم جمعة عادي..

حراسة مشددة وأسلاك شائكة حول مساحة يبلغ محيطها أكثر من عشرة كيلومترات، كل تلك المساحة الشاسعة ليست مشغولة بالكامل بالمنشآت، بل يوجد فيها مناطق واسعة فارغة، تُستخدم لإجراء بعض التجارب، ومناظرة نسخ الأسلحة المطورة الجديدة، قبل اعتمادها رسميًا، والسماح باستعمالها من قبل قوات المملكة المسلحة.

في تلك الليلة كان المخزن الكبير، الذي يحتل أكثر من نصف المساحة المبنية من المنطقة، خاويًا تمامًا، أرضه الشاسعة تلمع فوقها أضواء عشرات الأنوار الكاشفة، وتجوبها كاميرات المراقبة الطائرة جِيئة ودَهَابًا بشكل روتيني، دون أن تكون هناك حاجة إلى ذلك.

وعلى الجانبين كانت ثمة مخازن أصغر حجمًا بكثير، أحدها يقع قرب المخرج الخلفي للمكان، وكان ذلك المخزن هو الأكثر أهمية، الليلة بالذات.

لأن ثمة شيئًا رابصًا فيه!

نسخة مصغرة مطورة من طائرة استطلاع فائقة القدرات، كان البدن الأسود المطفي، والأجنحة الصغيرة الخفيفة الوزن للغاية، تعطي انطباعًا بشيء يشبه لعبة أطفال حديثة كبيرة الحجم، لكن المَخْبَر كان نقيض المظهر تمامًا، فتلك الآلة كانت تملك قدرات هائلة فيما يخص القدرة على الطيران على ارتفاعات متباينة، والتقاط صور ثابتة ومتحركة فائقة الدقة، بل كانت تحوي أجهزة تسجيل صوتية فائقة، تتيح لها التقاط وتسجيل محادثات بتردد أقل من

10 هرتز!

ذلك السلاح المهم، والذي يعتبر أعجوبة حتى حينه، حصلت عليه المملكة من خلال صفقة بالغة السرية، صفقة ثلاثية، وافقت خلالها دولة كبرى على منح نسختين من ذلك السلاح، تحت التجربة، للأردن، ولإحدى الدول الشقيقة، مع تخفيض كبير في السعر، بشرط السماح للدولة المصنعة بتجميع البيانات من خلال الطائرة، أثناء تحليقها فوق نقاط محددة ومتفق عليها سلفًا، كل ذلك كان في إطار إجراء مزيد من التجارب على طائرة الاستطلاع الحديثة تلك، وتحسين قدراتها، ومحاولة تلافي وعلاج عيوب تصميمها إن وجدت.

لم تعترض السلطات الأردنية على الشرط الأخير، لسبب وجيه، وهو أن الدولة المصنعة تعهدت بتقديم قائمة بالمعلومات التي تم تجميعها من الأجواء الأردنية، ونسخة من التسجيلات الخاصة بها إلى حكومة المملكة، كما أنه لم تكن توجد أي عداوة أو خلافات سياسية بين الدولتين، وبسبب ذلك التفاهم دخلت هذه الطائرة الأعجوبة الخدمة، تحت الاختبار، بعد أن تقرر تحديد قائمة بالمهام الأولية التي سيتم تجربتها فيها!

كان الوضع هادئًا تمامًا في المكان، والحراس حول السياج الخارجي في أقصى درجات التنبيه واليقظة، أما في الداخل فقد كانت الأمور أكثر هدوءًا وتراخيًا، وأقل توترًا للأعصاب، فلم يكن هناك مبرر لأي تحفز أو تأهب زائد عن اللزوم.

استمر هذا الوضع الآمن حتى الساعة الثانية والدقيقة السابعة عشرة صباحًا، ومع اقتراب موعد تغيير مناوبة الحراسة الخارجية، بدأت الأمور تتصاعد قليلًا، غير أن العمال المناوبين في الأقسام الداخلية، خاصة في المخزن الكبير الفارغ، لم يكن لديهم أي سبب منطقي للشعور بالقلق، هذا طبعًا حتى شاهدوا عمودًا من اللهب البرتقالي يتصاعد من جوف طائرة الاستطلاع الجديدة!

انتبه أحد حراس المنطقة (د) أولًا إلى رائحة غريبة تنتشر ببطء في القسم الداخلي، كانت الرائحة في البداية خفيفة جدًا، إلى حد جعله يعتقد أنه يتخيل، وأن الإرهاق الذي يعانيه؛ نتيجة أربع عشرة ساعة متواصلة من العمل - إذ إنه حصل على مناوبتين متتاليتين هذا اليوم؛ بسبب رغبته في بدء إجازة طويلة من نهار السبت القادم مباشرة - هو السبب في اعتقاده بوجود رائحة غريبة تسري في المكان.

استراح الحارس لثوان قليلة، قبل أن تتوتر حواسه كلها، وتنشط قدرته على الشم، وتتحدث أذناه؛ لأن الأمر لم يعد قاصرًا على مجرد رائحة خفيفة، بل لقد سمع صوت خطوات غريبة تحوم حول المكان، شهر الحارس سلاحه، وتقدم نحو النقطة التي يظن أن صوت الخطوات يصدر منها، وهو يلقي

بإشارة من يده نحو زميل له، يقف على الطرف الآخر من المخزن الصغير، لكي يتقدم ويغطيه من الناحية المقابلة، برغم أنه فعليًا لم يكن يرى أي شيء أو أي شخص غريب في المكان.. زادت قوة الرائحة أكثر، وبغته اندفع عمود من اللهب من قلب الطائرة الرابضة وسط المخزن، حتى بدت وكأنها مكوك فضاء، يدفع وقوده المحترق عكسيًا، لكي يتمكن من الانطلاق إلى أعلى!

كان الأمر غريبًا جدًّا، خلال لحظة كان غريبًا، ثم في اللحظة التالية أصبح مرعبًا، وذلك عندما بدأت الطائرة الخاوية ترتفع من تلقاء نفسها!

كانت أجهزة الطائرة كلها تعمل بأقصى قدرتها، وآلات الدفع تحملها من فوق الأرض، التي كانت تجثم عليها منذ لحظة واحدة، لترفعها عموديًا، وبشكل مرعب، نحو السقف الأبيض اللامع، الذي تملؤه الكاميرات، وأجهزة المراقبة والتسجيل الحساسة!

انطلق الحراس يصرخون، وركضوا في وقت واحد تجاه الطائرة، التي ترتفع أمام أعينهم، محاولين إيقافها، ومنعها من الانطلاق بعيدًا.

دوت الصرخات المحذرة، وبدأ الحراس المنتشرون خارج المخزن ينفذون الإجراءات المعتمدة في حالات الأزمات والخطر، لكن الأمور كلها لم تستغرق أكثر من دقيقتين إلى ثلاث دقائق، حيث واصلت طائرة الاستطلاع تحليقها، حتى كادت ترتطم بالسقف، ثم أكملت خط سيرها عكسيًا، فراحت تتهاوى نحو الأرض بسرعة جنونية، والنار تلتهمها بسرعة فائقة!

انتشر الشعور بالخوف، بينما صدرت الأوامر السريعة بإخلاء المكان فورًا، فراح الحراس العاديون يغادرون، ودخلت فرقة مكونة من رجال مدربين ومتخصصين في التعامل مع الحالات غير الاعتيادية، لكن، في الحقيقة، فإنه لم يكن لحضورهم أي أهمية أو فائدة، ذلك أن النسخة المطورة من طائرات الاستطلاع، كانت قد تهاوت فعلاً على الأرض، محدثة صوتًا مكتومًا، قبل أن تصدر منها فرقة غريبة، وتشتعل بأكملها، وتبدأ في الاحتراق، بين يدي الحراس المدربين، الذين راحوا يطلقون نحوها دفعات سخية من المياه، من خراطيم ضخمة، حتى تمكنوا من السيطرة على الحريق، وإطفاء النيران تمامًا!

انتهى الحريق المحدود، لكن ليس قبل أن يتسبب في تدمير الطائرة بشكل جزئي، وتعطيل أجهزتها الحساسة الدقيقة، وتكبيد الدولة قدرًا كبيرًا من المال والمعلومات الضرورية!

انتزعني نداء عاجل من فراشي، واستدعيت ذهنيًا إلى اجتماع مع قيادتي في
المخبرات العلمية، نظرت إلى ساعتني لأجد أنها لم تتجاوز الثانية وسبعًا
وعشرين دقيقة صباحًا!

لا بد أنه أمر خطر الذي يجعلهم يكدرون هدوء غفوتي في مثل تلك الساعة،
فتسحبت سريعًا، محاذرًا إيقاظ (ديالا) العزيزة، التي كانت تنام كالملائكة
بجانبي، وهرعت فورًا إلى مكاني الآمن، حيث يمكنني تلقي الرسائل وتبادل
المحادثات فيه، لم تكن ثمة رسالة في انتظاري، بل صرخة احتجاج وغضب
شديد، كان رئيسي السيد (قاسم) يصرخ في رأسي بصوت يقطر غضبًا وقهزًا:

- لقد وصلوا حتى الحد الأعلى يا (سامر)! حتى أمننا القومي ومنشآتنا السرية!
كانت تلك من المرات القليلة، التي أسمع فيها هذا الرجل يتحدث وهو لا يكاد
يستطيع السيطرة على نفسه، أو تمالك أعصابه، فسألته محاذرًا أن يبدو على
صوتي أثر النعاس:

- من هم يا سيدي؟! من هؤلاء الذين تتحدث عنهم؟!
صرخ في رأسي مرة ثانية:

- ليس بعد يا (سامر)! لم نعرفهم بعد، لكننا سنفعل.. أقسم بالله أن أعرف
من هم وبأية طريقة كانت! (سامر)! لا نوم ولا راحة بعد الآن! إننا في حالة
تأهب قصوى حتى إشعار آخر!

أنهى السيد (قاسم) الاتصال الذهني، وتركني أجلس في ركني الآمن وحيدًا،
وقد امتلأت نفسي بالرعب، وعقلي بالتصورات والاحتمالات المخيفة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



المكان: دولة أجنبية غير محددة..

ساحة واسعة جدًا، هائلة الامتداد، لا بد أن عرضها يزيد عن كيلومتر كامل، وطولها أكثر من 600 متر على الأقل، فهي أكبر من ساحة (تيان أن من) الصينية العملاقة الشهيرة، وتزيد مساحتها على مساحة أي ميدان أو ساحة في العالم.

وبعكس الميادين العالمية الأخرى، فقد كانت تلك الساحة شبه خاوية، يغمرها الظلام، وتتحرك فيها بضعة أضواء كاشفة شديدة السطوع، غير أنها، إزاء المساحة الهائلة التي عليها أن تتحرك فيها، لم تكن تفعل شيئًا، أو تستطيع أن تبدد ولو نسبة ضئيلة من العتمة، التي رانت على الأركان والزوايا المتباعدة الشاسعة.

وحده الضلع الغربي كان يسطع بأضواء عملاقة، وتنكشف مساحته عن أرضية لامعة، تبدو من شدة بريقها كأنها مغسولة أو مبللة بالمياه، تحتلها بضع آلات ضخمة، تتحرك في هدوء تام.

من الغريب أنه لم يكن لتلك الأجسام المعدنية العملاقة هدير أو أزيز تتوافق شدته مع ما يبدو على أبدانها الضخمة، التي يحمل الجانب الأيمن منها، شعارًا غريبًا مجهولًا لكيان غير معروف.

كان الشعار شبيهًا بطائر كبير، يشبه نسر (جيفرين) العملاق، محفوفًا بعلامات متداخلة وغريبة، لا يسهل تمييز بعضها من البعض الآخر.. كان الشعار، الذي ليس معروفًا إلّا رمز بالضبط، متلائمًا جدًا مع الجو العام، خاصة بالمظهر الضخم المخيف لهذا النسر السيئ السمعة، أما الآليات التي تتحرك في سكون تام فقد عبرت الضلع الغربي من الساحة، لتصطف بنظام بديع خلف بعضها أمام بوابة معدنية هائلة، انفتحت على حين غرة في الساحة، فبدت وكأنها بوابة زمنية، تبتلع ما يمر من خلالها، وتنقله إلى بعد آخر مواز، أو كأنها هبطت من السماء، حيث لم يكن لها وجود من قبل!

من الطرف الآخر كان ثمة شخص يراقب.

شخص ضئيل الحجم، له شعر غريب كثيف بدرجة غير عادية، وقد لف جسده الصغير في معطف متسع من فراء السمور الفخم، برغم أن الجو لم يكن باردًا أبدًا، صحيح أنه كانت هناك نسيمات باردة تعبر الساحة من لآخر، لكن تلك النسيمات كانت بفعل آلات تهوية هائلة، أبقيت إحداها فقط قيد

التشغيل في المكان، بينما أطفئت البقية منها، وكان عددها يتجاوز الخمس؛ إذ لم يكن هناك حاجة إليها.

برغم مظهره الذي يوحي بهوان شأنه وضعف شخصيته، فإن الضئيل كان يمارس سلطاً هائلاً على المكان، ويفرض طاعته على الآلات المتحركة الضخمة، وعلى من يتولون تشغيلها عن بعد!

مرت دقائق لم يحدث فيها أي فعل، ولم تصدر كلمة واحدة من أي شخص في المكان، قبل أن يصيح الرجل ذو السلطان الواضح فجأة، ودون سبب منطقي لصراخه غير المفهوم:

- اللعنة! ماذا تظنون أنكم تعملون هنا؟! هذه الأجسام الضخمة القبيحة لا تفعل شيئاً! لا شيء!

بُهِت شخص ما، لم يكن قد ظهر على مسرح الأحداث حتى اللحظة، فبرز من العتمة، التي كان يستتر بها في أحد الأركان، وتقدم بخطوات هادئة تجاه النقطة التي يقف فيها الضئيل الغاضب، وكان على عكسه كتلة بشرية ضخمة، وله رأس أصلع يبدو وكأنه كرة من الصلب اللامع القاسي، الذي لا يلين لشيء، لكن شخصيته كانت على النقيض تماماً، فقد كان هادئاً ومهذباً تماماً، وهو يوجه حديثه إلى الغاضب الضئيل، الذي يهدر معلناً عن غضبه وخيبة أمله:

- لا داعي لأن تقلل من جهد الرجال بهذه الطريقة يا سيدي، لقد قاموا بعمل رائع، وبذلوا جهدهم على أكمل وجه، ليس ذنبهم أن التصميم كان خاطئاً!

احتد الضئيل واشتعل الغضب في عينيه ناراً، وهو يقول بصرامة:

- ملايين وملايين تنفق على هذه الخردة، إصرار عجيب على الفشل مع أن لديكم البديل الأفضل.. بما أنكم قاصرو العقل، وخيالكم ضعيف إلى هذا الحد، كان بإمكاننا استبدال كل هذه الخردة بسلاح لا يقهر، ولن يكلفنا، في حساب التكلفة النهائية وتوزيعها، أي شيء! عمل عظيم لا ينتهي أثره أبداً.. سلاح المستقبل أيها الحمقى! كم مرة علي أن أقول لكم أن تدعوا الأمر لأصحابه وهم يملكون الطريقة الوحيدة لفعله بشكل صحيح؟!

كانت غضبة الرجل الصغير غير مبررة إطلاقاً، كما أنها موجهة في اتجاه خاطئ تماماً، فالشخص الذي راح يصب جام غضبه عليه لا يملك فعلياً من السلطة شيئاً، إنه خادم أنيق، برتبة رفيعة، وأوسمة فاخرة.

صورة منمقة جميلة، لكن لا نفع فيها!

الأوامر تأتي من الأعلى، وهو يعلم ذلك، والآخر أيضًا يعرف ذلك عن ظهر قلب؛ لذا كان كل منهما حريصًا على أن يؤدي دوره هنا وحسب، لا شأن له بما هو أكثر من ذلك، غير أنه كان للرجل الصغير الحجم مشروعاته الخاصة، إنه يذم المسؤولين دائمًا، وإن كان هو نفسه منهم في حقيقة الأمر، لكن قيادته ذهبت بعيدًا جدًّا في ازدرائه والتقليل منه، إنهم يرغمونه على الإشراف على مشروع مضاد لمشاريعه الخاصة!

يجعلون منه دمية بلا روح، تقف لتراقب هذه الكتل المعدنية الضخمة، وهي تعبر الساحة مستعرضة ضخامتها وخيبتها وفشلها في تحقيق أي شيء، والعيوب الخطيرة التي يحتويها تصميمها الأول، قبل تعديله وإعادة تعديله مرات لا حصر لها، ثم يدفعون له، نظير تلك المراقبة الذليلة، حوافز وبدلات سخية!

يهدفون إلى إهانته والتقليل منه؛ لأنهم ببساطة لا يصدقون شيئًا مما يقوله، ولا يرون في مشروعه الغريب سوى أحلام مجنونة، وتمسك بخطط أجمع ذوو الاختصاص على أنها لا تساوي قيمة الورق الذي طبعت، حروف كبيرة أنيقة، عليه!

حسنًا جدًّا، سوف يستمر في تادية عمله المهين، لكنه سيفسد عليهم فرحتهم برؤيته ذليلًا هكذا.

سوف يجعلهم يعترفون في يوم قريب جدًّا أنه الأعلى، والأفضل، والأكثر ذكاءً..

وأنه الأعظم قيمة بينهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أربعون يومًا..

هو الوقت الذي استغرقه دماغ الدكتور (شربل) نصف الآلي ليستعيد قدرته على العمل، بكامل طاقته.

كانت تلك هي اللحظة التي تنتظرها إدارة المخابرات العلمية بفارغ الصبر؛ إذ كانوا متأكدين من أن هذا الرجل، الذي حاول أحدهم التخلص منه مرتين، واستعملت طرق وحشية وخالية من الرحمة للإجهاد عليه، هو من يملك مفتاح اللغز، الذي ينظر إليه الجميع مشدوهين، وعاجزين عن فهم ما يحدث بالضبط!

خلال تلك الفترة تصاعدت ظواهر غريبة في العالم كله، فبالإضافة إلى ظاهرة المتسللين أو (الأشباح)، الذين يظهرون ويختفون بطرق غامضة، انتشرت أخبار وباء جديد، قادم من إفريقيا هذه المرة!

كان الوباء، غير معروف الاسم، قد بدأ حول بحيرة (نيوس) المشنومة في (الكامبيرون).. بدأ السكان القاطنون هناك يشكون من أعراض غريبة، وهن ورغبة دائمة في النوم، وكانت تلك مرحلة أولية؛ لأنه تلاها سقوط بعض الأشخاص موتى، وفي غضون ساعات من بداية شعورهم بالأعراض، أعلنت (الكامبيرون) وفاة ستين شخصًا بالمرض الغامض، قبل أن تهب المنظمات العالمية لدراسة وتحليل الأمر، وتقديم المساعدات الطبية والمهمات الصحية والغذائية أيضًا.

مباشرة تم ربط الوباء بما حدث من قبل في عام 1986، حادث الموت الجماعي الأكبر في تلك المنطقة، عند البحيرة ذاتها، حيث مات ألف وخمسمائة شخص في ليلة واحدة، فضلًا عن قطعان كاملة من الماشية، وذعر بقي يتمدد وينتشر، كنبات سام رديء، ينبت حيثما اتفق، في كل مكان.

كانت البحيرة هي المتهم الأول في الحادث، أو في حوادث الموت العاجل المتفرقة، غير أن دراسة دقيقة، وسريعة، أثبتت أن (نيوس) المسكينة ليست الجانية هذه المرة، فالبخيرة السامة، التي تحولت إلى مستنبت شيطاني، تغمره الضحالة، وتحيطه أجهزة الإنذار، وأنظمة تفرغ الغاز القاتل المتراكم، قد ثبتت براءتها، وكان ذلك مذهلاً، ومحبطاً في آن واحد، فمن الخير بالنسبة للراصدين والمتابعين، أن تكون (نيوس) هي سبب ذلك الموت السريع الغامض، فيسهل على السلطات التعامل مع الأمر، بدلاً من ترك اللغز مستغلقاً كما هو، أو الإقرار بأسوأ الاحتمالات المطروحة:

وباء غامض جديد، في وقت لم يفق العالم فيه بعد من تداعيات وآثار (كورونا) المهلكة!

كان الحل الثاني هو البديل الوحيد الآن، وتأكدت صحة النظرية مع انتشار الحالات، وامتدادها شمالاً، حتى حوض النيل، ووصولها إلى شمال (السودان).

بدأ الضحايا يتساقطون تباغاً، دون أن يعرف العلماء والأطباء والمسئولون ما الذي يواجهونه بالضبط!

تهياً النصف الشمالي من الكرة الأرضية، خاصة (أوروبا)، لتلقي نصيبه العادل من الجائحة الجديدة، التي لم تحصل حتى على اسم مبتكر بعد، عندما توقف كل شيء فجأة مثلما بدأ!

توفي عجوز تنزاني اسمه (جورج شوماري) في الثالثة والسبعين من العمر، في الثاني عشر من أغسطس، وتوقع الجميع توالي سقوط الضحايا من بعده، لكن شيئاً من هذا لم يحدث.

قد توقف عداد المتوقّنين فجأة، ولم تظهر إصابات جديدة أبدًا، ورغم استمرار الإجراءات الاحترازية المشددة، إلا أن الوباء توقف عند ذلك الحد.

مع نهاية شهر سبتمبر التالي لم تسجل حالة وفاة غامضة واحدة، يمكن عزوها إلى الوباء المجهول، وخلال شهر آخر تم رفع القيود الأمنية، وتخفيف المحاذير الصحية، قبل أن يتخلى الناس عن الخوف تمامًا، وتعود الحياة إلى طبيعتها السابقة في شتى أرجاء العالم، بما في ذلك البؤرة الأولى التي شهدت بداية حالات الوفاة الغامضة!

كان ذلك لغزًا في حد ذاته، وإن لم يدرك أحد حينها أن اللغز الجديد نفسه هو مجرد مفتاح، يخفي خلفه سلسلة مرعبة ومتصلة ومرببة من الألغاز المتشابكة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طلب قائدنا عقد اجتماع اعتيادي في منتصف الأسبوع.

لم يكن جدولي أنا و(ديالا) و(كريم) يسمح بذلك، فقد خططنا للذهاب إلى منطقة البحر الميت، لقضاء بضعة أيام.

كنت أتلهف على راحة مشبعة باليود النقي، والأملاح التي تشفي الأمراض، والهواء النقي الذي يملأ الخياشيم براحة، ويعمر الجسم بالصحة والعافية.. كان (كريم) يتوق إلى أيام لا تنتهي من اللعب على الشاطئ الفيروزي، والاستلقاء وسط الرمال الشافية، أما ملكتي فكان لها غرض آخر، ورغم أنها تريد مشاركتنا اللهو والمتعة والمرح، فإن فكرة اكتساب القليل من اللون البرونزي المحبب طغت عليها، واحتلت كل تفكيرها، حتى إنها راحت تغريني بشراء ثياب منزلية أنيقة بألوان دافئة، خضراء وبرتقالية، وتعرضها علي قائلة إنها ستكون أكثر جمالًا عليها وهي ببشرة برونزية لامعة ومميزة.

كان هذا هراء في نظري، فجمال (ديالا) لا يزيده أو ينقص منه شيء، إنه خالد كأسرار الطبيعة وجمال الأفلاك، وإن كان شيء يزيد الآخر جمالًا، فإن جمالها هو الذي سيزيد تلك الألوان سحرًا، قلت لها ذلك فأشرق وجهها، ونسيت ما انتوّته لدقيقة أو دقيقتين، قبل أن تعاود هجومها الناعم علي، وتقول:

- ولكنني سأكتسب اللون البرونزي، وأعود من هناك كأنتي (زنوبيا) في زمانها!
(زنوبيا) العظيمة، هل كان لونها برونزيًا؟ وهل كان جمالها يضاها جمال حبيبتني؟!
لا أظن!

كل تلك السعادة قطعها قرار رئيسي بعقد ذلك الاجتماع العاجل، ولم أعلم حين اختليت بنفسي، وبدأت دخول دائرة التواصل الذهنية، أن ذلك الاجتماع لن يؤثر على خططي القريبة وحسب..

بل سينهيها وبلغها تمامًا!



في مكان ما، بعيد تمامًا عن موقع لقاء (سامر رمضان) بقيادته العليا، كان ثمة اجتماع آخر، لكنه، بعكس الأول، كان سريعًا وقصيرًا جدًّا، ولم يتم التخطيط له، أو الدعوة إليه، كما كان عدد الحاضرين فيه أكبر قليلًا، وأخيرًا فقد كان ذلك الاجتماع يهدف تمامًا إلى معاكسة النتائج التي سيسفر عنها اجتماع قيادات المخابرات العلمية، والتغلب على أي قرارات سيتم اتخاذها فيه!

على رأس الحاضرين كان رجل نحيل، يبدو غريب الأطوار جدًّا، وله تسريحة شعر شاذة وغير مستساغة، مظهره العام منفرد، ويدل دلالة واضحة على أنه يعاني خطبًا ما في نفسه، أما طريقة حديثه، وأسلوبه اللفظي في التعامل مع المحيطين به، فقد كانا يقطعان أن مشكلته السلوكية تتخطى كثيرًا مجرد قدر زائد من الغرور، يشعر به شخص ليس لديه سبب واحد للإحساس بالاستعلاء والأفضلية على الآخرين، أما البقية فكانوا خليطًا من رجال يرتدون ملابس أنيقة مهندمة، ويحمل أحدهم زهرة غريبة في يده اليسرى، وامرأة واحدة جلست عند الطرف البعيد من الغرفة، ولم تكن تشارك في الحديث، بل كانت تسجل أفكارًا تلمع أمامها على شاشة صغيرة، على شكل جمل وعبارات طويلة جدًّا، ومليئة بالجمل الاعتراضية، ثم تقوم بترجمتها إلى ثلاث لغات، كان الحاضرون في الاجتماع يستخدمونها أثناء أحاديثهم.

كان وجود تلك المترجمة غريبًا جدًّا، في الوقت الذي كانت فيه أجهزة الترجمة الفورية متوافرة حول المكان!

ما الداعي لوجود ترجمة بشرية، تحتل الصواب والخطأ في عرض وتوصيل الأفكار، بينما توفر التكنولوجيا بديلًا أكثر جرفية، ونسبة الخطأ فيه لا تتعدى واحدًا على مليون من احتمالية الخطأ البشري؟!

أثيرت تلك النقطة من جانب بعض الحاضرين، المعترضين على وجود دخيلة بينهم، لكن رئيس الاجتماع قال منهيًا النقاش بطريقته الحازمة المتعطرسة:

- إنه لا يثق بأحد غيرها ليوصل أفكاره كما يجب!

لكن، من هو المقصود بتلك الإشارة؟!

إنه أغرب إنسان يمكن لعينيك أن تقعا عليه، كان كائنًا مميزًا وعجيبًا، كتلة هامة من اللحم والعظام، مربوطة إلى كرسي متحرك محاط بسلسلة من الأجهزة التي تتيح لمستخدمه الكلام والتفاعل ونقل الأفكار، ومتابعة ما يقوم به الآخرون.

كان الرجل من بين عدد محدود من الأشخاص الذين تم تزويدهم بنسخ حديثة جدًا من تقنية التواصل المعززة البديلة، وكان نظام (ACC) الخاص به يتضمن أنظمة معقدة جدًا، تشمل لوحات مفاتيح متطورة، وأنظمة لصياغة الأفكار وتوليدها على شكل كلمات مفهومة، بأكثر من لغة، وهواتف حديثة جدًا بها أحدث نسخ من تطبيقات متنوعة ذات صلة، وأجهزة تتيح للمستخدم تكوين صوته الإلكتروني الخاص.

كان النظام يوفر نسخًا متعددة من الأصوات البشرية المتباينة، لكن الرجل المعلق في كرسيه هذا إلى الأبد اختار أن يكون صوته الخاص، عبر توليفة صوتية متميزة، فقد كان تشابه صوته الإلكتروني مع أصوات بقية مستخدمي نظام (ACC) حول العالم، وعددهم الكلي لا يزيد عن ستين شخصًا، لا يرضيه، ولا يشبع حبه لذاته، ودرجة الغرور العالية التي يتمتع بها!

كان يكره جدًا أن يشبّهه أحد بالعالم الفيزيائي (ستيفن هوكنج)، والذي كان من أهم أسباب شهرة نظام (ACC) في العالم.

مساعده كانت تعلم بنواقصه الشخصية العديدة، وتعرف أنه عنيد ومتعطر، ومتشبه برأيه، وأن فكرة محاولة تغيير هذا الرأي، بأشد الطرق منطقية وإثباتًا للحقائق، ومراعاة للمنهج العلمي، لا تزال تفشل في ثنيه عما يريد، وما يخطط له.. وبرغم أنه كان صعبًا جدًا، ومتعبًا في التعامل معه، إلا أن إدارة الوكالة القوية، التي نظمت وعقدت هذا الاجتماع السري للغاية، كانت تجد في (إيليتش) كنزًا بشريًا تفوق قيمته كل تصور!

(إيليتش) كان الاسم الذي جرى به تقديم العالم المربوط إلى كرسيه المتحرك، ذي النظام المعقد والمستحدث جدًا، دون اسم أوسط، أو لقب عائلي، ودون تحديد اختصاصه العلمي، أو إعلان المهمة التي سيضطلع بها هنا، فبقي منصبه وأهميته غامضين كاسمه المفرد المجرد من كل سابقة أو لاحقة، وهو لم يكن اسمه الحقيقي أيضًا!

- إننا نوشك على التحرك الجدي، وقد أنهينا المرحلة الأولى من خطتنا تقريبًا، بقي أن نروج لنظامنا الملهم، ونعرضه للبيع بأعلى سعر ممكن، على من قد يهتمون به.

صدرت إشارة ضوئية من إحدى الشاشات المتصلة بمقعد (إيليتش) المتحرك، ثم ما لبثت أن توهجت بشدة.. توتر بقية الحاضرين، أما المساعدة فقد ظلت هادئة تمامًا، فقد اعتادت على فورات الرجل العصبية، وتعلمت كيف تبقى آمنة في الركن، بينما هو يعبر عن غضبه بكل الطرق المتاحة له!

غمغم أحد الحاضرين، وكان له منظر سقيم، وخداه الملتهبان دلا على أنه يعاني مرضًا عضالًا يفتك بجسده تدريجيًا:

- هل أخطأ زميلي في شيء؟!!

صدرت إشارة أخرى فوق الشاشة، تلاها صوت أزيز معدني قوي، مما دفع الحاضرين إلى تغطية آذانهم بأكفهم بقوة، ليقوها الضرر الذي يمكن أن يحيق بها نتيجة هذا الأزيز، ذي التردد الذي يعرفون أنه قد يسبب لهم ضررًا وتشويشًا على أدمغتهم، وأنظمتهم العصبية، ثم بدأت الشاشة تعرض ما يقوله الرجل.

كانت تتلقى إشارات العصبية النشطة، وترجمها، عبر تقنية معقدة، إلى كلمات وعبارات مفهومة:

- من أي مقلب للقمامة أحضروكم إلي؟!!

انعقدت حواجب معظم الحاضرين غضبًا من تلك الإهانة المباشرة التي يوجهها إليهم الرجل القعيد، لكن الأخير استمر يكيل لهم السباب واللوم:

- «نوشك» و«تقريبًا» و«مممكن»! إنها مجرد كلمات غامضة، كلمات مبهمة، تدل على أنكم لستم واثقين من أي شيء.

توقف الرجل برهة ليلتقط أنفاسه، فقد كان بث الإشارات العصبية لفترة طويلة يرهقه فوق تصور أي إنسان، ثم استأنف الجولة الثانية من الهجوم قائلاً:

- هذه كلها خطط حمقاء لا ضابط لها، أنتم تعيشون فسادًا في الشوارع والمؤسسات، وما الذي يثبت ذلك؟! هذا لعب فارغ، وسوف تكشفون أنفسكم قبل أن تتمكنوا حتى من لفت أنظار المشتريين المحتملين، ثم إنكم تتجاهلون أن تلك الطريقة الصبانية قد تفضح نقطة الضعف التي يعاني منها البرنامج.

قاطعته ذو المظهر السقيم؛ إذ لم يعد قادرًا على الصبر على ذلك الرجل أكثر من هذا الحد:

- نقطة ضعف؟! لا توجد نقطة ضعف في برنامجنا، فقد صممه رجال على أعلى مستوى من العلم والذكاء!

هنا صدرت إشارة ضوئية مبهرة جدًا، وظهرت الشاشة وكأنها توشك على الانفجار، ترافق ذلك مع صوت منكر مرتفع، أصم آذان الحاضرين، فحموا آذانهم بأكف أيديهم بهلع، أما المساعدة الذكية، والتي كانت تعرف الاحتمالات، لما يمكن أن يجري هنا، واستعدت لها جيدًا، فقد كانت بالفعل ترتدي واقيات الأذن الخاصة بها!

رجاه الحضور أن يخفف من عصبيته، فبهتت الإشارة المبهرة، وظهر مكانها على الشاشة صورة تعبيرية كبيرة جدًا.

وكانت إشارة بذيئة للغاية!

- هذا المسخ! إنه يهيننا!

التقط القعيد ما تردد في عقول الحاضرين، فصدر أزيز مرعب من نظامه، ثم ما لبث أن قال بصوته المعدني:

- احذروا! يمكنني التقاط إشاراتكم العصبية وترجمتها بكفاءة، قبل أن تجدوا أنتم أنفسكم الوقت لكي تفهموا فيم تفكرون بالضبط!

كانت تلك مفاجأة مرعبة بالنسبة إليهم، فقد كانوا يعلمون مسبقًا أن (إيليتش) يستخدم نسخة مطورة وحديثة جدًا من نظام (ACC)، لكن لم يتم إحاطتهم علمًا بمدى تطور النظام الخاص به، ولا بالأخطار التي قد يمثلها عليهم!

أفرغ الرجل غضبه، ثم التفت نحو الرجل السقيم، وقال عبر إشاراته الدماغية، التي يترجمها الجهاز فورًا:

- تَبًّا لك! وتَبًّا لكل رجالك الذين على أعلى مستوى من العلم والذكاء هؤلاء!

مرة ثانية يهينهم كلهم، وهم عاجزون عن الرد عليه، أو حتى مجرد تفريغ غضبهم ذهنيًا؛ خشية أن يلتقط إشاراتهم العصبية ويترجمها على نحو صحيح، فيقعوا في ورطة كبيرة هنا.

ابتسمت المساعدة ابتسامة خفيفة جدًا، لم يلحظها أحد، بينما أردف (إيليتش) مستنكرًا:

- إن برنامجك اللعين الذي تقول إنه لا يشمل خطأً واحدًا، مصاب بعدة أخطاء وعيوب جسيمة!

رد السقيم، بعد أن ضاق ذرعًا بشرح الأمور لهذا المتغطرس، الذي لا يمكن التفاهم معه أصلًا:

- حتى وإن كان كلامك صحيحًا، فإنهم لا يعرفون بذلك!

قاطعه (إيليتش) فورًا:

- لكن الدكتور (شربل) يعرف!

فوجئ الجميع بتلك الحقيقة، فقد كانوا يظنون أن (شربل) يعرف فقط بحقيقة البرنامج، وليس بالعيوب التي يحتوي عليها، وعلى ذلك الأساس حاولوا قتله

لكيلا يفضح السر فقط، وليس ليمنعوه من معاونة من يخضعون للتجارب من إفشال وتحطيم النظام بأسره!

إن هذا يصنع فرقًا كبيرًا، ويجعل الأمر أكثر خطورة، وحاجة إلى تصرف سريع جدًا، وحاسم:

- الدكتور (شربل)! لكنه...

صدرت ضحكة ساخرة من نظام (ACC)، وكانت ضحكة رقيقة دوت في قاعة الاجتماعات، بصوت (إل ريستيس) المفحم المميز، وهي الضحكة التي اختارها (إيليتش) بنفسه، لكي يعبر بها عن سخريته واستهزائه بالآخرين، وتم تزويد البرنامج بها بعد إصراره العجيب على ذلك!

شعر الرجال المجتمعون بالغضب الشديد، لكنهم كتبوا غضبهم واستمروا ينصتون بهدوء ظاهري، وهم يسمعون النظام ينقل إليهم، بتقنياته المعقدة، كل ما يقوله الرجل في حقهم:

- أعرف ما ستقول.. لقد مات! أليس كذلك؟! لا.. (شربل) لم يمت بعد، وما زال حيًّا يرزق.. ربما تعرفون أنه تحول إلى نسخة سايبورج رديئة، وربما لا يتذكر شيئًا مما حدث قبل محاولة التخلص منه، لكنكم جميعًا على خطأ!

انبرى أحد الحاضرين بعد أن مل من ذلك الوضع، وسئم من محاولة (إيليتش) هذا لفرض سلطته، وإظهارهم بمظهر الجهلاء المغفلين:

- لقد مات بكل تأكيد، على الأقل لم يعد يملك دماغه السابق، وإعادته إلى الحياة كنصف آلي لن توفر له إلا فرصة ضئيلة ليتذكر شيئًا من حياته السابقة. ثم أضاف المتكلم رغبة منه في استفزاز هذا القعيد المتسلط:

- سيعيش داخل غلاف معدني لا يوفر له إلا نسخة باهتة من الحياة، تمامًا كنظامك الرديء الذي تعيش حبيسًا بداخله!

انتفض دماغ (إيليتش) من الغضب داخل رأسه، لكنه لم يظهر أي ردة فعل من خلال نظامه المعقد، فقد كان دماغه من القوة والسيطرة على عملياته الحيوية، بحيث يستطيع كتمان انفعالاته، والتمويه على النظام المتصل بذهنه، إن أراد، فلا يستطيع قراءتها أو ترجمتها.

كانت مساعدته تعرف تلك الحقيقة المرعبة جيدًا! لذلك لم تندهش لعدم ظهور أي ردة فعل بالإشارات الضوئية أو الصوتية، وبقيت هادئة مستكينة في مكانها، بينما ابتسم الرجل المهان ابتسامة آلية، وأجاب بتسليم ظاهري:

- افعلوا ما بدا لكم.. إنني أرفع يدي عن الأمر كله!

كان يبدو مستسلمًا، وربما مجروحًا أيضًا، لكنه في الحقيقة كان يفور بغضب وحقد شديدين، انفعالات رهيبة اضطرت إلى كتمانها، وعدم إظهارها قسرًا، لكن إهانتته على هذا النحو الصريح والعلني كانت خطأ، كبيرًا ومهلكًا، لن يتصور الآخرون أو يتخيلوا مدى سوءه، أو يتوقعوا الأخطار التي ستنتج عنه، لوقت طويل قادم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

راقبنا، أنا والسيد (قاسم) و(ديمتري)، بانتباه وتركيز شديدين، العملية المعقدة التي تجري أمام أعيننا، فخلف جدار زجاجي مصقول، يتيح لنا رؤية أدق التفاصيل وأصغرها، وعبر سلسلة ميكروفونات حساسة للغاية، تم تثبيتها في مخارج صوتية مخصصة، حول الجدار الزجاجي، كنا نستطيع أن نري ونسمع كل شيء، وكأننا موجودون بالداخل، حيث تتم المرحلة الأخيرة من تشغيل أجهزة الدكتور (شريل) الموصلة بما تبقى من جسمه، والتي تتيح له البقاء على قيد الحياة كنصف بشري ونصف آلي، سايبورج؛ وذلك تنفيذًا لوصيته التي سجلها، وحفظها بنفسه قبل موته الأول.

كنت أراقب الأحداث وأنا أفكر في الطريقة التي يحسب بها بعض البشر الأمور، وكيف يرون أن استمرارهم في الحياة بتلك الصورة المروعة يمكن أن يعد مكسبًا بأي معنى كان.

كان (شريل)، الذي لم نعلم بعد مدى أهميته لأشخاص، أو جهة ما، بحيث يجتهدون في محاولة قتله مرتين، ولا أهميته بالنسبة إلينا، وإلى القضية المعقدة التي نمر بها هذه الأيام؛ قد تحول إلى شيء غريب جدًا!

من زاوية جانبية بدا لي الرجل، أو الشاب؛ إذ يقولون إنه في التاسعة عشرة من العمر، وإن كان عقلي يكذب هذا الادعاء؛ كأنه جسد بشري بلا رأس! جسد تم تعليقه على شماعة لها رأس معدني كبير بلامح إنسانية، وذلك راجع إلى الجزء الذي تم استبداله من رأسه الطبيعي بجزء معدني قبيح وبارز.

لاحظ رئيسي نظرتي المشمئزة، فقال دون أن ينظر إلي:

- سيغطون الأجزاء المعدنية بطبقة تشبه الجلد البشري الطبيعي، فقط هم يريدون التأكد أن كل شيء يعمل بكفاءة، قبل أن يدخلوا المرحلة التجميلية الأخيرة!

أعوذ بالله!

مهما قاموا بتجميله، أو لصق بشرة طبيعية تعطيه مظهرًا بشريًا حقيقيًا، فإنه لا يزال بالنسبة لي أشبه بمسوخ مشوه وقبيح، ولا أتمنى أبدًا أن أصير، في يوم ما، نسخة من تلك الكتلة نصف المعدنية، التي أراها أمام عيني.

أدرت وجهي بعيدًا للحظة؛ لأخفي نظرات الاشمئزاز من عيني، وتغلبت على نفوري وعدت لأنظر بتدقيق إلى ما يجري أمامي، كان العلماء والأطباء عاكفون على فحص كل الأجزاء الصناعية، بينما يتابع متخصص، استشاري عالمي في الجراحات السايبورجية، الوظائف الحيوية للأعضاء الحقيقية، والإشارات الإلكترونية، وأنظمة عمل الأجزاء الصناعية.. كان كل جزء في جسد الدكتور (شربل) قد تحول إلى نسخة مختلطة، تضم جزءًا من بقايا جسمه البشري، وجزءًا صناعيًا مضافًا، تم وصله به عن طريق جراحة معقدة وطويلة.

ذهلت وأنا أرى ذلك الإتقان والجهد كله، وإن كانت نتيجته منفرة بالنسبة لي، وفكرت في عدد الساعات التي استغرقتها تلك الجراحات المذهلة الشديدة التعقيد.. لم أستطع أن أكبح فضولي الشديد، فطرحت السؤال بصوت منخفض علي رئيسي، لكن (ديمترى)، الذي بدا مهتمًا أكثر منا نحن الاثنين، أجابني دون أن ينظر نحوي:

- ست عشرة ساعة متواصلة لتركيب وتوصيل كل عضو، أما جراحة استبدال جزء من الدماغ، وتوصيل النهايات العصبية، فقد استغرقت سنًا وعشرين ساعة، وقام بها ثلاثة فرق طبية مدربة بالتناوب، على مدى يومين كاملين، لكنهم لم ينتهوا بعد!

أفقت من ذهولي ونظرت إليه مستنكرًا ومندهشًا، فقد سببت لي المعلومة الأخيرة قدرًا هائلًا من الحيرة والتعجب، لكنه أردف ببساطة، وقد فهم ما يجول في نفسي، دون أن أنطق به:

- أعني أنه ما زال لديهم المرحلة التجميلية الأخيرة.. فهل تتصور أن شيئًا كهذا يمكن أن يتجول في الشوارع، ويتعامل مع الناس، وهو على تلك الصورة؟! نفس ما قاله لي السيد (قاسم) منذ لحظة قصيرة، وكان الأمر منطقيًا فعلاً، لكنني ما زلت أجدته منفردًا ومثيرًا للتعجب.

فجأة صدرت ضجة من الداخل، وتمزق ستار الهدوء الذي كان يخيم على المكان، لمع الجزء المعدني الإضافي من رأس الدكتور (شربل)، وحدثت ضوضاء إستاتيكية قوية، ثم انتفض جسد المريض، الذي تم وضعه، محاطًا بأسلاك معدنية، وأقطاب متداخلة، ليغوص في مقعد كبير له تصميم خاص، بقوة هائلة، حتى كاد يتهاوى من فوق مقعده، لكن المحيطين أمسكوا به ببراعة، ومنعوه من السقوط، ثم راحوا يجرونه ليعيدوه إلى موضعه الأول، ويعدلون في نفس الوقت الأسلاك والأجزاء المعدنية والكهربية المحيطة به.. مرت لحظة صمت، بدا خلالها أن الجسد نصف المعدني يتنفس بعمق، كانت تلك علامة مبشرة ومنتظرة بشدة، رأيت الأمل في وجه السيد (قاسم) حين

لاحظ الأمر، بينما استطلت قامة (ديمتري) فجأة، وهو يدفع بنفسه نحو الزجاج، حتى كاد وجهه يخترقه وينفذ إلى داخل الغرفة من الناحية الأخرى، أما أنا فقد وقفت مشدوهاً، منتظرًا المزيد.

فجأة التأم شمل فريق العلماء والأطباء، ومعهم استشاري السايبورج المتخصص، حول جسد الدكتور (شربل)، الذي عاد إلى مرحلة الجمود والسكون التام، وراحوا يتخبطون، ويتكلمون في وقت واحد معًا، لم أفهم شيئًا لثانية أو ثانيتين، ثم ما لبثت أن أدركت أن هناك، فيما يبدو، خطأ جسيمًا يعملون على إصلاحه.

نفخ (ديمتري) بقلق شديد وهتف بغیظ:

- إنهم يحجبون الرؤية عنا!

وفعلًا كانت تلك اللحظات، التي قضيناها واقفين هناك خارجًا، ونحن نحاول تحريك وإمالة رءوسنا في كل اتجاه ممكن، لنرى ولو قليلًا مما يحدث خلف جدار الفريق الطبي المنيع؛ شاقة وعسيرة جدًّا على نفوسنا، مرت دقائق بعدها، وتفريق الرجال من حول الدكتور (شربل)، وأتيحت لنا فرصة رؤية المشهد كاملاً هذه المرة، وفي تلك اللحظة، أطلقنا نحن الثلاثة صرخة فرح ودهشة؛ إذ رأينا المريض الساكن يحرك رأسه في الاتجاهين، يمينًا ويسارًا، وينظر بعينه الحقيقيتين، اللتين تلمع فيهما نظرة جامدة غريبة، وبل ويفتح فمه بشكل متكرر، يوحي بأنه يحاول الكلام!

- سيستطيع الكلام بشكل طبيعي، لكن بعد بعض التدريب.

كانت تلك مفاجأة سارة بالنسبة لي أنا شخصيًا، الذي كنت ما زلت مبهورًا بموضوع السايبورج هذا، وإن كنت أتشكك فيه بقوة، لكن (ديمتري)، الذي يستمتع بإفساد فرحة الآخرين، أردف ببساطة:

- لكنه غالبًا لن يستطيع تذكر شيء عن حياته السابقة، إلا شذرات بسيطة وأحداث مبهمة، لكنه لن يستطيع تفسيرها أو شرحها كما يجب، لأن عملية نقل الذاكرة الخاصة به لم تسر كما نحب!

كانت تلك ضربة قوية جدًّا لأحلامي، وطموحات فريق المخبرات العلمية كله، والذي كان يعلق أملًا كبيرًا على ذاكرة الدكتور (شربل) هذا، وما يمكن أن يكشفه لنا عن أسباب محاولتي اغتياله، والظهور المرعب لإنسان قادر على الظهور، والاختفاء التام وقتما يشاء، وعلاقة هذا كله بالأحداث الغريبة التي نواجهها!

لقد أحسن (ديمتري) توجيه الضربة، وقضى على آمالنا مستخدمًا كلمات قليلة، لكنها قاتلة ومحطمة لكل طموحاتنا، إذن فلن يكون هناك لهذا المسخ

ذاكرة، وهذا يعني أنه لن يكون له فائدة تذكر!

أم إن في الأمر سرًّا ما؟!

لقد علمتني خبراتي الطويلة، وكل المواقف التي مررت بها إبان عملي، في المخبرات العلمية، أن كل الحقائق البسيطة الواضحة، كحقيقة فشل نقل ذاكرة الدكتور (شربل)، يكون وراءها عادة سر مخفي، أو حقيقة أخرى مختلفة تمامًا، فهل هذا هو الوضع هنا؟!

أدعو الله أن تكون نظرية المؤامرة الخاصة بي صائبة هذه المرة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متبَعًا حَدْسي الخاص، نزلت إلى الشارع صباح اليوم التالي.

كنت في هيئة سائق التاكسي العادي، وقد قررت أن ألعب دوري ببراعة أكثر من أي وقت مضى، كانت (ديالا) قد ودعتني قبل خروجي، وطبعت على خدي الأيمن قبلتين متتاليتين، فمازحتها:

- إن الخد الثاني سيغضب منك هكذا!

مالت على خدي الثاني، وطبعت عليه قبلة قوية وقالت بدلال:

- أنت طماع يا (سامر)!

رددت عليها بضحكة من قلبي وأنا أقول:

- وأنتِ صرتِ بخيلة يا (ديالا)! أعتقد أن عليك قراءة شيء من سيرة (حاتم الطائي) بأقرب وقت!

كان العفريت الصغير (كريم) يختبئ في مكان ما، وخرج فجأة ليقول لي مظهرًا أنه قد سمع كل شيء دار بيني وبين أمه:

- هلا تفضل السيد (حاتم الطائي) بتوصيل ابنه (الطائي) الصغير إلى المدرسة، قبل أن يطرده أو يعلقه على الباب!

ضحكنا لقوله وشقاوته، التي كانت تبعث الفرحة والسعادة في قلوبنا، وكدت أمره بإحضار حقيبته، لآخذه وننزل ونستقل التاكسي معًا، لكن (ديالا) أوقفتني قائلة بحسم:

- لا، اذهب أنت إلى عملك يا حبيبي، وأنا سأوصل (كريم) إلى المدرسة اليوم.

دهشت لهذا التغيير في روتيننا اليومي، فسألته عن السبب، لتقول لي ببساطة وسرعة:

- أريد الذهاب مع (كريم) اليوم؛ فقد عاقبته معلمة الرياضيات أمس، واهتمته بأنه تشاجر مع أحد زملائه، فأردت أن أذهب لأوضح لها الأمر! نظرت إليه متسائلاً:

- هل فعلت ذلك حقًا يا (كريم)؟! هل تشاجرت مع زميلك في المدرسة؟! هز (كريم) رأسه إيجابًا، وأجاب بأنه تشاجر معه بعد أن تنمر عليه زميله هذا، وأن هذا الزميل هو من بدأ المشكلة معه، وافتعلها بدون سبب، وأن بعض أصدقائه سيشهدون بهذا أمام المعلمة.. ابتسمت له وأثنت على ما فعل أمام عيني (ديالا) المشدوهتين، لكنني أكدت عليه أنه يجب أن يفعل هذا، نحن لا نفتعل أي مشكلة مع أي أحد، ولكن لا يجب أن نسكت أو نتجاهل أي اعتداء علينا، يجب أن نقاوم الضربة بضربات أشد.

ابتسمت (ديالا) متفهمة، فأخبرتها أنني سأوصلهما إلى المدرسة معًا، لكنها رفضت وقالت:

- كلا يا (سامر)، سوف تمر علي جرتي (جود) وابتنتها لنذهب معًا إلى المدرسة، فلدى طفلتها مشكلة هناك هي الأخرى. فجأة لمعت في ذهني فكرة..

تركتهما خلفي مودعًا، ونزلت لأقوم بتسخين سيارتي وتشغيل المحرك، لم أكن أطيق الصبر، حتى تبدأ السيارة بالعمل، كانت لهفتي قاتلة، وبمجرد أن تحركت حبيتي (الكامري)، انطلقت بها متوجهًا إلى مستشفى (الملكة علياء) العسكري، فقد أعطتني (ديالا)، دون أن تقصد بالطبع، طرف الخيط الذي يمكن أن يؤدي بنا تتبعه، إلى الوصول إلى حقيقة ما يجري حولنا من أحداث مريبة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مستشفى (الملكة علياء) العسكري..

التاسعة وخمس وثلاثون دقيقة صباحًا..

ساحة الانتظار الكبيرة أمام المستشفى، كان للمبنى الضخم ساحتا انتظار، إحداهما مخصصة لسيارات المرضى وأقربائهم، والزوار من مختلف الأنواع، والثانية لسيارات الطاقم الطبي، وطاقم التمريض، والموظفين الكثيرين في المستشفى.

وصلت هناك بسيارتي (الكامري)، وقمت بصفها بين عدة صفوف منتظمة من السيارات، من كل الماركات المحلية التصنيع، أو المستوردة من دول أخرى، كانت الحركة دائبة، والنشاط يملأ المكان، وحين هبطت من سيارتي وجدت

زحامًا شديدًا في المكان؛ مما دفعني إلى الاعتقاد أن الأمر حادثًا، أو زيارة طارئة لمسئول كبير، آتٍ ليتفقد المستشفى، وسير العمل به!

مررت وسط عدد من الناس، معظمهم في معاطف بيضاء؛ مما دلني على صفتهم وطبيعة عملهم، متجمعين، وكانوا لا يعملون شيئًا سوى تبادل الحديث، لكن التوتر الشديد كان باديًا على وجوههم، فتركتهم خلفي، وعبرت الباب الأمامي الرئيسي لأجد نفسي في ممر طويل فاخر، في نهايته ثلاثة مكاتب استقبال، يشغل اثنين منها رجلان في بذلتين رسميتين مهندمتين، أما الثالث فوقفت خلفه فتاة شابة، تبدو في مقتبل العمر، وتلبس حجابًا أبيضًا جدًّا، وكان مما لفت نظري إليها هو أنها تشبه (ديالا) إلى حد كبير!

اتجهت نحوها دون وعي، رحبت بي برقة، فسألتها مباشرة:

- أبحث عن الممرضة (جود) من فضلك، فهل هي مناوبة في المستشفى اليوم؟!

قالت بصوت خفيض النبرات:

- نعم.

قلت بتهديب:

- أريد مقابلتها حالًا، لأمر ضروري جدًّا، من فضلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



- 10 -

كانت الخطة قد اختمرت في رأسي تمامًا..

كيف لم أفكر في ذلك من قبل؟!

بقيت في الانتظار أقل من دقيقتين حتى وجدت المرأة المقصودة تقبل نحوي، نازلة من مصعد أقلها من الأدوار العليا.

عرفتها من الطريقة التي سارت بها باتجاهي، بمجرد أن رأيتني واقفًا أمام صف من مقاعد الانتظار الخالية في الاستقبال، حيث بدا واضحًا أنني أنتظرها، ولست مريضًا يرغب في الحصول على رعاية طبية، أو زائرًا يقصد تفقد أحد المقربين له في المستشفى، وجدتها امرأة جذابة وهادئة الطباع، وذلك يبدو جليًا على مٌحياتها، لكنني بالطبع لن أذكر شيئًا من تلك الملاحظات لزوجتي (ديالا)، قدمت لها نفسي، دون أن أذكر عملي الحقيقي، بل أعلنت أنني محقق مع الشرطة، وأنا نقوم بإجراء تحقيق حول بعض حالات الاختفاء الغامضة.

اتسعت عيناها حين سمعت ذلك، وبدا أنها تذكرت شيئًا خاصًا بها، وقالت مبهورة:

- كان هذا أغرب شيء مررت به في حياتي!

فورًا عرفت أنها تقصد تجربتها غير العادية في الاستقبال، والتي كان التقرير الخاص بها ضمن الملف الضخم الخاص بتلك القضية، أو الظاهرة الغامضة، التي لم نجد لها تفسيرًا بعد.

قلت لها بلطف:

- سيدة (جود)، أرجو أن تقصي علي ما جرى معك بالضبط.

قالت لي معترضة بأدب:

- آنسة يا سيدي من فضلك!

عجبًا! الغريب أن هذه التحفة الفنية لا تزال عزباء حتى هذه السن، لكنني أعرف أن النساء يولين الألقاب الخاصة بحالتهن الاجتماعية أهمية كبيرة.. مصححًا خطئي قلت وأنا أدخل في صلب الموضوع مباشرة، مع بعض الحرج:

- عفوًا آنسة (جود)، احكي لي القصة بالتفصيل.

قالت وهي تضع يديها في جيبي معطفها الأبيض الأنيق، والذي يحمل على صدره شعار المستشفى:

- كنت أتابع مهمة تسجيل المرضى الذين يراجعون الاستقبال؛ لأوزعهم بعد ذلك على الأقسام المناسبة لحالاتهم، وعندما كنت أدور بين المنتظرين، وكان عددهم كبيرًا في ذلك اليوم، كان هناك مقعد فارغ خلفي، وعندما استدرت ثانية وجدت شخصًا يجلس عليه.

قاطعتها بلهفة:

- هل رأيت هذا الشخص وهو ينتقل إلى هذا المقعد الخالي؟! هزت رأسها بقوة، وبدا أنها متأكدة تمامًا مما تقول:

- لم ينتقل أحد من الجالسين إليه، فقد كانوا كلهم في مقاعدهم الأولى حين شملت المكان بنظرة سريعة، لأتأكد من أن هذا الرجل لم يكن موجودًا من قبل.

- ربما كان مراجعًا جديدًا دخل للتو؟!

- الممر الذي يستخدمه المرضى للوصول إلى صالة الانتظار الصغيرة يقع خلفي، أي أن أي شخص يدخل ويجلس كان لا بد لي من أن أراه وهو يتقدم من عند مكتب الاستقبال.

- ما الذي يجعلك متأكدة من أن أحدًا لم يتحرك من مكانه ويجلس على هذا المقعد الخالي؟! بعض من ينتظرون فترات طويلة تتصلب ظهورهم من الجلسة، فيحاولون التحرك حول المكان ليخففوا التعب والملل!

ابتسمت (جود) وقالت بذكاء:

- هذا محال؛ لأنه كان فوق المقعد صحيفة!

- صحيفة؟! ماذا تقصدين؟!

- نسخة من جريدة (المرايا)، كانت موضوعة فوق المقعد الخالي، ويبدو أنها تخص أحد المنتظرين، أو أحد المرضى الذين تم نقلهم إلى أحد الأقسام الطبية المختلفة، ويبدو أنه نسيها هنا.

- ما علاقة الصحيفة بهذا الشخص الغريب؟!

- لأنه لو كان إنسانًا طبيعيًا جاء واختار المقعد وجلس فوقه، لأبعد الصحيفة أولًا، هذا أقل واجب، وهذه أمور لا يلاحظها سوى النساء يا سيد (سامر)!

ابتسمت، وقلت لها مجاملًا:

- نعم صحيح، لا أحد يملك قوة ملاحظة مثلكن يا آنسة!

ابتسمت بخجل حين ذكرت لقبها الاجتماعي، الذي بدا أنها تعتر به بشدة، فرجوتها أن تكمل كلامها:

- كان شخصًا غريبًا جدًّا، يجلس في مكانه جامدًا كصخرة، بل كان يلتصق بمقعده إذا شئت الدقة، ولم يكن مشغولًا بأي شيء!

سألته محاولًا أن أفهم تمامًا ما جرى، من وجهة نظر امرأة دقيقة الملاحظة وذكية مثلها:

- لم يكن مشغولًا؟! لم أفهم!

- أعني أنه لم يكن يتسلى بشيء حتى يحين موعد نقله إلى القسم المناسب لحالته، أو استكمال تسجيل بياناته وبقية تلك الأمور، أنت تعرف يا سيدي أن الانتظار قد يستغرق، في بعض أيام الضغط، ساعات طويلة؛ ولذلك فكل شخص يحاول أن يتسلى بأي شيء، كتاب أو لعبة إلكترونية، أو تصفح للإنترنت عبر الهاتف، وما يشابه، أما هذا فلم يكن يفعل شيئًا على الإطلاق! وأعتقد أنه لم يكن يحمل مالا معه أيضًا!

عقدت حاجبي وأنا أسألها باهتمام:

- وكيف عرفت ذلك من فضلك؟!

- لأنه لم تكن لديه جيوب! سرواله وقميصه وسترته، كانت كلها بدون جيوب!

قلت فورًا بعد أن فشلت في التغلب على فضولي الجارف:

- ربما كان لديه جيب خلفي يا آنسة؟!

ابتسمت مظهرة اعتزازها بذكائها ودقة ملاحظتها:

- لا يوجد سروال له جيب خلفي فقط، دون أن يكون له جيوب جانبية.

نعم بالفعل، كانت تلك ملاحظة شديدة الذكاء وعظيمة الأهمية، رجوتها أن تسترسل في سرد قصتها، فأكملت دون تردد:

- لفت مظهره وطريقة جلسته انتباهي، فاتجهت نحوه وسألته عن اسمه وبياناته لكي أسجلها، لكنه لم يجنبي، بل لم يرفع عينيه نحوي حتى!

- ربما لم يسمعك مثلًا؟!

- وهذا ما خطر في بالي أنا أيضًا، فكررت سؤالي بصوت أعلى قليلًا، لكنه لم ينطق بكلمة واحدة، بل رفع عينيه ببطء ونظر إلى عيني، وحين التقت عيناه بعيني أقسم لك يا سيدي أنني شعرت أن أحدًا ما حملني وألقاني في برمبل ثلج!

- ماذا تقصدين؟!

- أقصد أنني شعرت ببرودة قاتلة، ورعشة، وحتى أصابعي لم يعد بوسعي تحريكها، كانت عيناه جامدتين تمامًا، كأنهما عينا شخص ميت! بالضبط، عينا إنسان ميت، بلا أي نوع من التعبير أو الانفعالات، يا ربي! إن أطرافي ترتعش حتى الآن كلما تذكرت الطريقة التي نظر بها إلي!

استحسنتها وأنا في قمة انفعالي ورغبتني في معرفة بقية التفاصيل:

- أكملني، أكملني من فضلك.

- حين لم يجنبي للمرة الثانية، خطر ببالي أنه ربما كان أصمّ، وأحسست بالشفقة عليه.

- وما الإجراء الذي تتخذونه في حالة كهذه؟!

- لدينا موظفو استقبال يعرفون لغة الإشارة، وكنت سأذهب لأستدعي أحدهم، بعد أن أنتهي من تسجيل بقية الحالات، لكن أحد زملائي أتى ليقدم لي كشفًا ببيانات تخص العمل، فتناولته منه وعدت لأنظر نحو الرجل الأصم، فلم أجد له أثرًا!

- هل أنت متأكدة من أنه لم ينهض دون أن تنتهي لذلك؟!

- مستحيل! لا يمكن أن يمر من خلفي دون أن ألاحظه، لقد كان الممر المؤدي إلى الخارج أمامي، وخلف كتف زميلي، وكان لا بد له من العبور أمامنا إذا أراد الخروج.

- والأقسام العلوية؟!

- لا يمكنه فعل ذلك دون أن يحصل على بطاقة مسجل بها اسمه والقسم الذي تم تحويله إليه، وإلا فلن يسمحوا له بدخول أحد الأقسام أبدًا!

- ربما لم يأت للمراجعة الطبية؟! ربما كان له غرض آخر؟!

كان ذلك الاحتمال الأشد منطقية، لكن الممرضة هتفت مظهرًا أنها فعلاً تتمتع بقدر لا يستهان به من دقة الملاحظة:

- أعرّف ما تقصد يا سيدي، لكنه حتى وإن كان له غرض آخر غير الكشف الطبي، فلن يستطيع دخول أي قسم دون بطاقة تسجيل أيضًا، حتى منطقة الخدمات والحمام، وغرفة الألعاب الإلكترونية، لا يدخل إليها أحد دون بطاقة تسجيل!

راح ذهني يعمل بسرعة شديدة، وأحسست طنينًا في أذني، فسألتهَا آخر سؤال كان في جعبتي في هذه الساعة:

- وماذا بعد ذلك؟!

- تفقدت صالة الانتظار كلها، ثم نظرت نحو مكتب الاستقبال فتأكدت من أنه ليس موجودًا، فتوجهت نحو المكتب وسألت زميلي (محمود) عما إذا كان هناك شخص مر إلى الخارج أمامه، فأكد لي أن ذلك لم يحدث.

ثم التقطت أنفاسها، وبدا أن تذكر تلك التجربة يزعجها بشدة، وهتفت:

- لكن كان هناك أمر غريب آخر، حين عدت إلى مكاني!

- ما هو؟!

سألتهَا بلهفة وفضول لم أستطع التغلب عليهما، فظهرًا جليًا من خلال نبراتي، فقالت:

- حين رجعت إلى صالة الاستقبال كانت الصحيفة لا تزال في مكانها، لكنها مستوية!

- ماذا؟!

- لم يكن بها كسر أو تشوه نتيجة جلوس أحدهم عليها! كانت منطبقة، نصفين، بعناية، والعنوان الرئيسي يظهر على القسم العلوي من الصفحة الأولى، دون أن تتشوه الحروف أو تتكسر!

ضربت جبهتي بكف يدي المفتوحة، وقلت:

- سيّدة (جود)، أنت شديدة الملاحظة إلى درجة عظيمة!

- آنسة يا سيدي من فضلك!

هتفت بي وجبينها متغصن من الغيظ، فقلت معتمدًا وأنا أبتسم:

- عفوًّا.. آنسة (جود)، لديك دقة ملاحظة مذهلة!

ابتسمت وقالت مُطرية نفسها بوضوح:

- الحمد لله! وأستطيع أن أخبرك بشيء آخر.. لقد قمت بارتداء ملابسك بنفسك هذا الصباح يا سيدي، ولم تكن زوجتك موجودة عندما غادرت المنزل!
- نعم؟!

أبدت دهشتي مبهورًا، فابتسمت وهي تكشف عن الطريقة البسيطة التي عرفت بها هذه الحقيقة:

- الأمر واضح، أحد أزرار قميصك العلوية موثق في العروة الخطأ، وما كان ذلك ليمر ببساطة على أي امرأة في العالم!

شكرتها بحرارة، وتركتها خلفي لتواصل عملها، وبينما أنا أسير في الممر الأبيض النظيف، في طريقي إلى الخارج، معدلاً موضع الزر في قميصي؛ خطرت لي فكرة مضحكة:

- ترى هل تقبل هذه الأنسة أن تنضم إلى فريقنا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الساعة الثانية وخمس وأربعون دقيقة صباحًا..

جزيرة (مانهاتن) الأمريكية / (نيويورك)..

الدكتور (لودج)، رجل قصير القامة يخرج من بناية كبيرة قائمة في وسط حي (ليتل إيتالي)، وعلى عكس معظم سكان الحي المستقرين، والذين تبدو أصولهم المتوسطة بوضوح على ملامحهم، فإن هذا الرجل كان يحمل سمات الجنس الآري بوضوح؛ بشرة بيضاء وعينان زرقاوان كبيرتان ولهما نظرات عميقة، ويعتمر قبعة بطلت موضتها من اللبَّاد، ويلف نفسه في معطف رث، وبدا غير مغسول حتى.

كان مظهره يدل على قلة عناية تامة بنفسه وهيئته، لكن نظراته الزائغة في تلك اللحظات، وطريقة سيره السريعة، وعدوه تجاه سيارته، التي صفها في مرآب صغير، ومحاولته إدارتها بلهفة جنونية، بمجرد دخوله إليها، رغم إدراكه أن المحرك يحتاج لدقائق قليلة ليعمل بكامل طاقته، كلها دلت على مقدار الفزع الذي يعانیه!

لقد غادر شقته المحصنة في البناية الواقعة في (ليتل إيتالي)، تركها مغلوبًا على أمره بغية النجاة بنفسه، كانت الشقة تبدو كقلعة من قلاع التقدم التكنولوجي، وقد أنفق الدكتور (لودج) عمرًا في تجهيز هذا الوكر الآمن لنفسه، كاميرات في كل ركن، أجهزة استشعار تعمل بالأشعة فوق البنفسجية، ميكروفونات حساسة، تلتقط أدق وأقل الأصوات، في كل ركن، أجهزة تنصت متصلة بكافة مُعدّات المنزل العادية، بما فيها المرحاض نفسه،

الذي تُبنت تحته كاميرا حساسة فائقة القدرة، خشية أن يحاول أحدهم وضع ميكروفون أو جهاز تسجيل في هذا المكان.

كل ذلك إضافة إلى تشكيلة من أجهزة دقيقة جدًّا، وصغيرة إلى حد أن بعضها أقل حجمًا من الإصبع البشرية، موزعة بشكل يخفيها عن الأنظار، في كل مكان يمكن أن يتخيله أحد:

- إن ملك (إنجلترا) لا يحيط نفسه بكل تلك الحماية المفرطة، أيها المهووس! قال له أحد زملائه وأصدقائه المقربين ممازحًا، فرد عليه (لودج) بغطرسة واعتداد لا نهاية له بنفسه:

- ملك (إنجلترا) ليس مهمًّا مثلي، فهو لا يعرف ما أعرفه!

ورغم ما يبدو في تلك العبارات من كبر وغرور غير مبررين إطلاقًا، إلا أن الرجل لم يكن مبالغًا أبدًا فيما يقول!

لقد اطلع على تفاصيل ذلك المشروع منذ أن كان مجرد فكرة مجنونة، لم تسجل حتى على الورق بعد؛ لأن صاحبها عندما عرضها على البعض قيل له بصفاقة:

- أنت مجنون! راجع طبيبك النفسي دون تردد!

كان ذلك صحيحًا إذا نظرنا إلى الأمور من زاوية ضيقة، لكن بعض المسؤولين الأشد تهذيبيًا أجابوه بشفقة:

- مستحيل يا سيدي، عليك أن تعرف أن للجسم البشري حدودًا فيزيائية لا يمكنه القفز عنها.

وهذا أيضًا صحيح، لكن صورة الدكتور (غريفين)، واختراعه المذهل، لا تزال عالقة في ذهنه منذ صباه، حين قرأ رواية (الرجل الخفي) للعبقري (ويلز):

- لكن عليك تذكر نهايته المريعة أيضًا، لكل شيء ثمن، وثمر عمل مهول كذلك سيكون مرعبًا!

سدوا جميع الأبواب في وجهه، حتى وجد أخيرًا بابًا أخيرًا مفتوحًا يرحب به.

باب الدكتور (لودج)!

جاء إليه الشخص، الذي لم يعرّف نفسه إلا باسم أول دون لقب أو كنية، وقد عرف (لودج) فورًا أنه يكذب، ويخفي هويته الحقيقية، حاملًا معه مخططًا غريبًا، وعدة أقراص حساسة مسجل عليها بيانات كثيرة جدًّا، وكمية من البيض الفاسد!

- وما أهمية وجود البيض الفاسد في مشروع كذلك؟!

- البيضة الفاسدة تطفو يا سيدي، علينا مراقبتها بدقة لتتعلم سلوكها ونتقنه!

- لا أفهم شيئاً!

في الحقيقة، نعم، لم يكن الدكتور (لودج) يفهم كثيرًا من البيانات التي ألقاها الثاني على مسامعه، لكن فكرة أنه لجأ إليه هو بالذات دون سابق معرفة بينهما، أرقته بشدة:

- لماذا جئت إليّ أنا؟! قد أقوم بفضح شرك أو استغلال خططك لصالحي! أليس كذلك؟!

أجاب الرجل بعفوية تثير الشفقة:

- إنك لن تفعل أيًا من ذلك؛ فأنا أعرف من أنت!

من الجيد القول إن الأول كان حسن النية، وربما ساذجًا، بشكل أكثر مما ينبغي؛ لأن (لودج)، حين تأكد من قيمة وأهمية مشروعه الخطير، وتيقن أن تنفيذه، رغم كل الصعوبات التي تحيط بذلك، ممكن؛ قتله بالفعل! قتله..

واستولى على كل أوراقه وخططه، واحتفظ بها لنفسه!

من المؤسف قول ذلك..

لكن يبدو أن الدور قد أتى عليه الآن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين بدأ تشغيل سيارته، بعد أن تأكد من أنه لم يتم العبث بها، أو تلغيمها، أحس (لودج) ببعض الراحة، فقد غادر شقته الآمنة بعد أن تأكد أنها ليست إلا مسألة وقت حتى يضعوا أيديهم عليه؛ لأنه قد فعل الكثير من الأشياء الخاطئة والعدوانية ضدهم:

قتل صاحب الفكرة، ونهب خططه وأفكاره لينسبها إلى نفسه، وجرؤ على ابتزاز مسئولين وشخصيات خطيرة، وثقيلة الوزن في عالم المال والسياسة؛ رغبة في الحصول على أكبر قدر ممكن من الفوائد المادية والعلمية!

بل طالب حتى، في صفاقة تثير الدهشة، بأن يصبح قائدًا ومشرّفًا عامًّا على تنفيذ المشروع برمته، وطبعًا تجاهلوا طلبه، ومنحوه بعض الملايين من الدولارات، وقالوا له بلهجة ذات معنى واضح وصريح:

- انس كل شيء عن هذا الموضوع! لقد أخذناه من هنا، وانتهت صلتك به الآن!

اللجنة عليهم!

أيعتقدون أنه سيرضي بحفنة من النقود، ويقبل أن يُنسب الفضل في واحد من أهم المشاريع في تاريخ البشرية إلى أحد غيره؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين بدأ ينطلق مبتعدًا، محاولًا الفرار بأقصى سرعته، من خطر لا يراه، لكنه يعرف جيدًا أنه موجود، رغم أن أجهزة الكشف الحساسة التي يستعملها فشلت كلها في رؤيته، أو التعامل معه؛ أحس (لودج) بتوتر ورعب، والتفت خلفه عدة مرات، محاولًا استعمال غريزته البشرية، بدلًا من أجهزته الإلكترونية فقط، لتحسس الخطر، والاستعداد له.

غير أن الرجل كان على علم، أكثر من أي شخص آخر غيره في العالم، أن كل تلك الوسائل البائسة لن تجدي نفعًا، فلم يكد يستدير منتبهًا إلى عجلة القيادة للمرة العاشرة، حتى انقض شيء ما، على عنقه من الخلف!

قوة عاتية، يدان من حديد التفتا حول عنقه، وراح صاحبهما يضغط بقوة، لم يستغرق الأمر أكثر من بضع ثوان، كافح فيها الدكتور (لودج) دفاعًا عن حياته، ضرب بيديه، بعد أن تخلص عن عجلة القيادة مرغمًا، وحاول أن يمد يديه إلى الخلف، ليمسك بذلك الشيء الذي يعتصر عنقه، لكنه اختنق سريعًا جدًّا، أسرع حتى مما تخيل، وانقطع الأكسجين عن الوصول إلى الأعضاء الحيوية، فراح الدماغ يحاول السيطرة على الجسد، الذي تتسرب طاقته سريعًا، دون فائدة، لعدم وجود القدر الكافي من الأكسجين الضروري.

كان ذلك سريعًا، لكنه مروع ومخيف!

بأقل من دقيقتين، كان الرجل يتهاوى، بعد أن توقف تنفسه، وشمله تشنج عنيف، قبل أن يسقط رأسه فوق عجلة القيادة، وقد أصابه شلل تام، لفظ على إثره أنفاسه، وعندما لم يعد هناك من يقود السيارة، انحرفت بقوة، وإطاراتها تصرخ من شدة احتكاكها في الأرض، حتى ارتطمت بجدار حجري كبير.

تهشمت المقدمة، وأصيب رأس (لودج) بإصابات خطيرة، رغم أن الرجل كان ميتًا من الأساس، أما الشخص، الذي قام بالإجهاز عليه، فلم يظهر منه شيء، حتى توقفت السيارة أخيرًا عن الحركة، وتحولت مقدمتها إلى كتلة من المعدن المنضغط، واختفى رأس الدكتور (لودج) خلف وسادة هوائية انفتحت، بعد فوات الأوان للأسف.

مرت لحظة حتى ساد السكون، وبدا أن الأمر انتهى عند هذا الحد، غير أنه، وبعد لحظات قصيرة، دفعت قوة ما باب السيارة الأيمن من الداخل!

كانت قوة كبيرة جدًّا، إلى حد أنها لم تفتح الباب وحسب، بل اقتلعتة وطيرته من مكانه، ليرتطم بالجدار، ومرت لحظة أخرى لم يُسمع فيها شيء آخر، واستعاد الشارع هدوءه في مثل تلك الساعة المتأخرة، وظهر بعض الأشخاص قادمين من الناحية الأخرى، كانوا امرأتين، إحداهما عجوز واهنة، بالكاد تسير على عصا، والثانية شابة، ومعهما رجل منحني الظهر على عصا مطابقة للعصا التي تستخدمها السيدة العجوز، وقد شاهدوا منظر السيارة المقلوبة المحطمة، فجرت الشابة بسرعة نحوها وهي تصرخ طلبًا للنجدة، بينما جاء العجوزان خلفها بالسرعة التي سمحت بها حالتها الصحية، وراح الرجل يقول لابنته الشابة:

- (فيرونيكا)! اطلبي النجدة! اطلبي النجدة!

أخرجت الشابة هاتفًا من حقيبة يدها، وبدأت تحاول طلب النجدة، بينما لفت أنظار المرأة العجوز شيء غريب، التفتت خلفها وراحت تحد عينيها الواهنتين لتسمع جيدًا، حُيل إليها لوهلة أنها تسمع صوت خطوات تأتي من نهاية الشارع، التي يقف ثلاثتهم، هي وزوجها وابنتها، وظهورهم نحوها.

راحت العجوز تنظر وتنصت بانتباه، بينما يطرق أذنها صوت ابنتها وهي تتحدث إلى موظف استقبال طلبات النجدة، مختلطًا بصوت الخطوات الغريب الذي تكاد تقسم أنها سمعته مرة أو مرتين بوضوح تام.. لفتت وقوفها المتخشب نظر زوجها، فوضع يده على يدها وسألها باهتمام:

- ماذا هناك يا عزيزتي؟!

فأجابته وهي تحاول أن تسمع المزيد:

- تخيلت أنني أسمع صوت خطوات تتجه نحو نهاية الشارع.

وهزت رأسها بوهن وأردفت:

- ربما كنت واهمة! نعم، أعتقد أنني توهمت ذلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



- 11 -

- ما الذي تقصده من كل ذلك يا (سامر)؟!

سألني السيد (قاسم)، وهو يتفحص البيانات الكثيرة، التي قدمتها له مسجلة على ملف إلكتروني، به أكثر من مائة صفحة بيانات وصفية:

- إن كل ما جمعته من معلومات يا سيدي من الممرضة (جود)، وكل شهود حوادث الظهور والاختفاء الأخرى، إضافة إلى مراجعة بيانات الكاميرات وتسجيلات محاولة قتل الدكتور (شربل) الثانية في غرفة العناية الفائقة، والبيانات التي زودنا بها المسئولون الصينيون وغيرهم، تقطع بأن لهؤلاء الأشخاص وجودًا ماديًا وفيزيائيًا حقيقيًا، كما أنهم ليسوا روبوتات أو آلات مزودة بذكاء صناعي، إنهم بشر مثلنا، لكن لديهم القدرة على الاختفاء والظهور كما يشاءون، دون أن تتمكن آلات التصوير الحساسة من رصدهم، كما لا يمكن التقاط الحرارة المنبعثة من أجسامهم!

طقطع (ديمتري) بلسانه وقال ساخرًا:

- مسيو (غريفين)! مساء الخير!

كان يسخر من فكرتي، لكنني فاجأته بهدوئي وأنا أرد عليه قائلاً:

- بالضبط!

لم يفهم (قاسم) عم نتحدث نحن الاثنان، فأوضحت له:

- الكاتب (هربرت جورج ويلز)، وروايته (الرجل الخفي) الشهيرة! الفكرة التي بدت مجنونة، ومستحيلة تمامًا، وقت نشر الرواية، لكنني أرى أنها تتحقق الآن أمام أعيننا، بالتفصيل!

قال (ديمتري) ملوحًا بيده:

- هذا هراء! إنك تعرفني كصديق، وتعرف مدى تقديري لمواهبك يا (سامر)، لكنني وبكل الإخلاص الذي أحمله لك فإنني أقول لك بمنتهى الصراحة: إن ما تقوله هراء!

هنا تدخل (يوسف) برغبته الخالدة في معاكسة ما يقوله (ديمتري) دومًا، قائلاً:

- ولم لا يا (ديمتري)؟! لقد سمعنا قصصًا مذهلة، وشهدنا بأنفسنا أحداثًا لا يصدقها أحد، إننا فريق المهام الغربية، وقد رأينا بأعيننا كيف أن العلم يتطور بسرعة مذهلة، والتجارب السرية لا تدع للخيال مكانًا فارغًا.. كل الطموحات العلمية التي كانت مستحيلة تحققت، وأكثر منها أيضًا، فلم لا تكون هناك

تجربة سرية غريبة تجري تحت أنظارنا ونحن غافلون عنها، أو غير مدركين لحجمها وخطورتها؟!!

لم أعرف إن كان (يوسف) يدعم فكرتي حقًا، أم إنه يؤازرني نكايه في (ديمتري)، الذي لم ينس خلافاتهما القديمة بعد.. كنت ممتنًا لتلك المساعدة، لكن رأي السيد (قاسم) هو الذي كان يمثل لي الأهمية الكبرى.

كان الرئيس يستمع بهدوء، ثم حين رأى أننا فرغنا من مناقشتنا الجانبية، قال بهدوئه المعروف:

- إننا لا نرفض مناقشة أي فكرة، مهما بدت غريبة أو غير معقولة، والحقيقة أن عملنا في حد ذاته، ينفي وجود شيء غريب أو غير معقول!

شعرت بفرحة عارمة وأنا أسمع تلك المقدمة، لكن الرئيس عاجلنا جميعًا ببقية رأيه، ولم يكن سائرًا لأي طرف منا:

- غير أنني في الحقيقة أرى ثغرات لا نهاية لها في تلك القصة، فمثلًا إن كانت تلك التجربة تهدف إلى تهديد أمننا القومي فلم لم يستهدف المخربون أهدافًا كبيرة؟! أو يحدثوا أضرارًا هائلة تؤدي إلى إحداث بلبلة في البلاد؟! وإن كانوا يحاولون فقط تجربة اختراع سري، فلماذا اختاروا (الأردن) تحديدًا للقيام بتلك التجربة?!!

هنا كان علي أن أتدخل لأوضح للسيد (قاسم) النقطة التي غابت عنه الآن بالتأكيد:

- لكنهم لم يستهدفوا (الأردن) وحده يا سيدي! بل الصين، ودولًا أخرى، بالأمس حدثت جريمة قتل غامضة في (مانهاتن) في (أمريكا)، والضحية شخص غامض يطلق عليه الدكتور (لودج)، وغير معروفة شخصيته الحقيقية، وتلا الحادثة عملية تخريب لمخزن سلاح صغير يخص الجيش الأمريكي في (كوريوس كريستي)، وهناك ثلاث حوادث قتل تمت أمام كاميرات مراقبة مثبتة في شوارع مزدحمة في (كمبوديا) و(ألبانيا) و(أوكرانيا)، دون أن يظهر القاتل في التسجيلات، وهناك حوادث تخريب واقتحام غريبة كلها لم يتم مشاهدة الفاعل أو التقاط صورته فيها.

قاطعني السيد (قاسم)، وهو يزوي بين حاجبيه، وقد بدأ يتحمس قليلًا:

- ماذا تقصد يا (سامر)؟!!

- إنني أقوم بعملية ربط يا سيدي!

تدخل (يوسف) في الحوار، بعد أن أكله الفضول مثله مثل أي صحفي آخر في مكانه:

- أتعني أن كل تلك الحوادث والأحداث متشابهة؟!

استدرت نحوه بمقعدي وأجبتة في ثقة:

- بل متطابقة يا (يوسف)، متطابقة ومترابطة!

شهق (ديمتري)، فلم أعرف إن كانت شهيقته دليلًا على الانفعال أو عدم التصديق، لكنه بقي معتصمًا بصمته، بينما سألني رئيسي بحماس أشد:

- وإذا كان ما تعتقده صحيحًا، فكيف لنا أن نتأكد من ذلك؟! وكيف نعرف حقيقة ما يجري بالضبط؟!

- في البداية علينا أن نسأل يا سيدي، من المستفيد من كل ذلك؟! ومن يمكن أن يقف وراء سلسلة الحوادث الغريبة تلك؟!

رد السيد (قاسم) بثقة:

- ليس لنا سوى عدو واحد معروف للجميع يا (يوسف)، وإن كان ثمة أحد يقف وراء هذه الحوادث والألغاز، فلن تكون سوى جهة واحدة بكل تأكيد!

طقطق (ديمتري) بلسانه، للمرة لا أدري كم، غير أنني لم أوله أي اهتمام، بل تحولت نحو السيد (قاسم) لأقول معترضًا:

- كلا يا سيدي! لو أن من تقصدهم هم من يقفون وراء ما جرى عندنا، فلماذا يستهدفون دولاً أخرى منها (الولايات المتحدة)؟! هذا مستحيل! أنا متأكد أننا إذا راجعنا الأمر عندهم بدقة لوجدنا حوادث مشابهة لما يجري هنا، وفي كل مكان آخر.. إن الأمر أكبر منهم، ومن الجميع!

فكر رئيسي للحظة، ثم سألني آخر وأهم سؤال في تلك الأمسية:

- هنا لا بد أن نسأل مجددًا! كيف لنا أن نتأكد من ذلك؟! وكيف نعرف حقيقة ما يجري بالضبط؟!

كانت الإجابة واضحة جدًا في ذهني، لكنني كنت أدخر مفاجأة صغيرة لعزيري (ديمتري) أيضًا:

- إن لدينا شخصين يستطيعان أن يكشفوا لنا كل شيء، أولهما هو الدكتور (شربل).

- لقد أفاق واسترد صحته، وتم تشغيل كافة الآلات المتصلة بجسده، يمكننا استجوابه الآن كما أكد لي الأطباء!

- حسنًا، والثاني؟!

- (فابيو)!

كاد (ديمتري) يقفز من فوق مقعده، وهو يسمعي آتي على ذكر (فابيو سكاشيتشي)، الجثة شبه الحية التي عنده في مختبره، والذي كان يعمل في عصابات مافيا الدماغ، والموصول بالإنترنت طوال الوقت، ولديه قدرة عجيبة على التحليل، والذي ساعدنا عدة مرات ببعض القضايا السابقة.

هتفت موجهاً الكلام للجميع:

- سنستجوب الدكتور (شريل) تحت مراقبة (فابيو)، فهو وحده من يستطيع إخبارنا إن كان الأول يخدعنا أم يخبرنا بالحقيقة!

ابتسم السيد (قاسم) وقال وقد أشرق وجهه:

- إنك لم تخيب ظني فيك أبدًا يا (سامر)، حسناً، سوف نبدأ الآن، فلا وقت لدينا نضيعه!

كان ذلك صحيحًا..

كنت فقط أتمنى ألا يكون أوان التصرف قد فات!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الساعة السابعة وعشر دقائق بتوقيت (أمريكا) الشرقي..

مشرحة كلية الطب بجامعة روكفلر / (مانهاتن) / (نيويورك)..

أبعد الدكتور (بروس سيفاك)، أستاذ علم الأمراض العدلي، الغطاء عن جثة طازجة أمامه.

لقد تعرض صاحب تلك الجثة للخنق بقوة، وهذا واضح من خلال احتقان الوجه، وظهور النقط النزفية في العينين، والزيد الرغوي الكثيف حول فتحتي الفم والأنف، وأيضًا البقع المتورمة الزرقاء الداكنة، المنتشرة على بشرة الضحية، إضافة إلى كل ذلك فقد تعرض المجني عليه لجروح وكدمات بسبب اصطدام السيارة التي كان يستقلها بجدار حجري، لكن فيما عدا ذلك فقد كانت الجثة سليمة تقريبًا، وخالية من الإصابات الجسيمة.

شكل ذلك لغزًا كبيرًا أمام الدكتور (بروس)، فما هو الداعي لنقل ضحية حادث قتل وسير عادي إلى مشرحة كليته، وتكليفه بمناظرة الجثة وفحصها بدقة؟!

كان الأمر الأخير غريبًا بالنسبة إليه؛ لأنه كان معروفًا عنه أنه يقوم بعمله بدقة متناهية، لكنهم استدعوه بالاسم، وكلفوه بتلك المهمة الصغيرة دون سبب واضح، بل وشددوا عليه بإجراء تشريح دقيق للجثة، رغم أنه كان يرى أن الإصابات الظاهرية، ومنها آثار الخنق، كافية لتحديد وتأكيد أسباب الوفاة:

- عم يبحثون بالضبط هنا؟!

كان ذلك إبداءً لدهشته، وليس سؤالاً ينتظر إجابة عنه، وقد وجهه إلى مساعده (جون ميهول)، الشاب الأسمر الخجول ذي الأصول الهندية، والذي تعود دائماً على موافقة أستاذه في كل ما يقول، دون أن يتورط في إعلان رأيه الخاص.

راح الدكتور يجري عملية الفحص الأولية، ويملي على (ميهول) كل العلامات الظاهرية على الجثة، ثم التقط مبضعه ليقوم بشق الجثة من أعلى الكتفين حتى أدنى نقطة من عظام القفص الصدري، كان الدكتور (بروس) في قمة تركيزه، بينما يتابعه مساعده باهتمام شديد، متأهباً لتقديم المعاونة الاعتيادية حين تُطلب منه.

كان الأمر غريباً بعض الشيء هذه المرة، فقد تعود المساعد على القيام بالإجراء الجراحي المبدئي، تحت إشراف الدكتور (بروس)، ومساعدته في ملاحظة وجمع العلامات الأولية والثانوية من الجثة، أما في هذه القضية الجديدة، فقد كان الأستاذ هو من يقوم بكل شيء، وبإصرار كامل:

- عليك أن تكون دقيقاً يا (بروس)، دقيقاً جداً، إن القضية تهم أعلى قيادة في البلاد!

تساءل الطبيب، المعروف بأرائه السياسية المناهضة للإدارة الأمريكية الحالية، مازحاً:

- هل تقصد المافيا؟!

لم يتسهم محدثه، الذي حافظ على مظهره الصارم من أول لحظة في المقابلة السريعة، التي تمت بينه وبين الدكتور (بروس)، أشهر المتخصصين في علم الأمراض العدلي، وأفضلهم سمعة في البلاد، بناءً على طلب الأول، الذي لم يقدم نفسه بتفصيل كافٍ، ورد على مزحة الطبيب قائلاً:

- آراؤك هذه يمكن أن تسبب لك ضرراً هائلاً في يوم ما يا عزيزي (بروس)، إننا بلد ديمقراطي، لكن لديمقراطيتنا حدود!

أجاب الثاني، الذي كان يعتز بعلمه وأستاذيته، التي حازها بعمل مخلص وجاد طوال أربعين سنة كاملة، قائلاً بحزم:

- أعرف حدود ديمقراطيتكم؛ ولذلك لم أرفض مقابلتك، رغم أنني في الحقيقة لا أملك دقيقة واحدة أهدرها في الكلام معك.

زمرج الأول بخفوت، ثم هتف مظهرًا جانبه اللين الطيب، وهو جانب مزيف تمامًا من شخصيته:

- عزيزي (بروس)، إننا لا نطلب الكثير، فقط افحص تلك الجثة اللعينة وقدم لنا تقريرًا مفصلاً!

- كان أي طبيب مبتدئ ليقوم بذلك العمل بالمهارة المطلوبة.

ابتسم المسئول الغامض، وقال مستحناً بلطف:

- لكننا نفضل اختيار أفضل الكفاءات يا عزيزي، ثم إنك ستقوم أيضًا بتفحص كافة أعضاء الجثة بحثًا عن أي أجهزة أو شرائح زرعت أو خبئت فيها!

- شرائح وأجهزة؟! ماذا تقصد؟!

لم يكن الأمر واضحًا تمامًا، لكن المسئول لم يكن يريد توضيحه أكثر من ذلك؛ لهذا قال بتهديب مصطنع:

- أي أنك يا سيدي ستفحص أجهزة الجسم وأعضائه وأنسجته بعناية، وأي جسم غريب تجده، عليك أن تعطيه لنا!

- جسم غريب؟!

كان هذا تساؤلًا يتطلب إجابة واضحة، لكن المسئول الظريف أكثر مما ينبغي أجاب وهو يرفع حاجبيه عاليًا:

- نعم يا صديقي.. جسم غريب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- جسم غريب!

واصل الدكتور (بروس) عملية التشريح المرهقة التي يقوم فيها، وقد تدخل مساعده عدة مرات، ليؤدي جانبًا من العمل، ليخفف الإرهاق والجهد عن أستاذه، وكان الاثنان قد فرغا تمامًا من عملية التشريح الظاهري، وبدأ في فحص الأعضاء الداخلية بعناية فائقة.

لم يفهم (بروس) ما المقصود من عبارة (جسم غريب) تمامًا، لكنه استمر في فحصه الدقيق، حتى وصل إلى المعدة وقام بشقها، وهناك وجد إجابة السؤال الذي حيره.

قرص مدمج بالغ الصغر، مغلف بغلالة بلاستيكية رقيقة، ضمن محتويات المعدة، التي لم تكن تحوي الكثير من بقايا الطعام:

- هذا الرجل كان يعاني القلق في ساعاته الأخيرة!

عرف الاثنان ذلك من تقدير كمية الطعام الضئيلة التي تناولها قبل موته ببضع ساعات، ومن علامات الجفاف الظاهرة على البشرة:

- لم يكن يهتم بطعامه أو شرابه، فلم يأكل أو يشرب القدر الكافي من الغذاء والماء.. لقد كان في حالة زُهَاب وتوتر شديدين!

في تلك اللحظة كان الدكتور (بروس) قد تمكن من تحرير القرص الصغير من خليط بقايا الطعام المحيطة به، ثم تناوله ومد يده به تجاه مساعده، الذي تلقاه منه في حافظة بلاستيكية معقمة ومختومة بشريط بيانات.. ألقى الدكتور القرص في الحافظة، فسارع (ميهول) بإغلاقها فورًا بحرص شديد، ثم تابع الدكتور فحص بقية الأعضاء الداخلية، لكن لم يعثر على شيء آخر يثير الانتباه، فبدأ يغلق الشق الجراحي، تمهيدًا لإعادة بناء الجثة، لكن (ميهول) أوقفه قائلاً:

- لا داعي يا سيدي، فقد أخبرونا أن الجثمان لن يتسلمه أحد، لقد أودعوه تحت تصرفنا بمجرد انتهاء عملية التشريح، وتقديم التقرير المطلوب.

هز (بروس) رأسه، فتساقطت بعض نقاط العرق على أعلى الكمامة المعقمة التي يلبسها، ثم قال، وهو يحرر يديه من القفازات، ويلقي بها بعيدًا باشمئزاز وإرهاق:

- حسناً، ليكن له فائدة في تعليم الطلاب الأغبياء على الأقل، ضعوا بقاياها في الثلاجة حتى نحتاجها في درس ما!

وهكذا تقرر المصير النهائي لدكتور (لودج)، وهو مصير لم يكن أبدًا يتخيله..
أبدًا، ولا حتى في أشد كوابيسه رعبًا وسوداوية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- سيد (شريل).. هل يمكنك سماع ما أقوله جيدًا؟!

هز (شريل) الموضوع على مقعد كبير، تمت إراحته فوقه وتوصيل أطرافه الأربعة بأقطاب وأسلاك مختلفة، رأسه إيجابًا، ثم قال بهدوء تام:

- نعم، يمكنني ذلك.

- سيد (شريل).. هل أناديك باسمك الصحيح؟!

لاذ (شريل) بالصمت لفترة طويلة، حتى سرت الدهشة وسط طاقم الأطباء والفنيين المتابعين لحالته، ثم قال أخيرًا وهو ينطق كل حرف ببطء غريب:

- لا.. إنك تستخدم اسمًا لا يخصني!

كاد رجل المخبرات العلمية، المكلف باستجواب (شريل)، تحت أنظاري أنا والسيد (قاسم)، يطرح سؤالاً ما، لكن رئيسي أشار إليه برأسه إشارة ذات معنى، فقال المحقق فورًا:

- ما هو اسمك الحقيقي يا سيدي؟! بماذا أناديك؟!

مرة أخرى انتظرنا جواب (شربل)، الذي يوشك أن يخبرنا باسمه وهويته الحقيقية، وقتًا أطول من اللازم، حتى أحسست أن قلبي يكاد يتوقف من شدة الانفعال والنشاط الذي يبذله، ثم أجاب أخيرًا بنفس البطء الذي يغيظ:

- لا أعرف يا سيدي! أنا أعرف من أنا، لكنني لا أتذكر اسمي الذي كانوا ينادونني به!

كانت تلك مفاجأة مروعة!

كاد السيد (قاسم) يقفز من فوق مقعده، ليمسك برقبة (شربل) اللعين هذا، عندما ظهرت إشارة ضوئية غريبة في غرفة التحقيق، وتلقيت رسالة ذهنية من (ديمتري)، الذي نقل إلى تلك الرسالة المقتضبة من (فايو):

- إنه يكذب!

يا إلهي!

ملت على أذن رئيسي ونقلت إليه الرسالة، فتخضب وجهه بحمرة الغضب، ونهض من مقعده، واقترب من المقعد، الذي وضع (شربل) فوقه، ثم انحنى ليكون قريبًا من أذنه بما يكفي، وقال له:

- حسنًا يا سيد (شربل)، إننا لا نرى فيك أي فائدة لنا؛ لذا فسوف أعطي أوامري بتدميرك، ونزع الأجزاء الآلية منك فورًا!

لمعت عينا (شربل)، الذي كانت حالته الراهنة لا تسمح له بإبداء انفعال مباشر بذلك الوضوح، وقال بصوت معدني جاف، وهو يختار ألفاظه ببطء قاتل:

- سيدي، أنا لا أعرف من تكون، لكنك لا تملك السلطة لتدميري.. إنني محمي بموجب قانون الأمم المتحدة!

ابتسم السيد (قاسم)، وقال له شامتًا، بلهجة قاسية:

- إنك لست في الأمم المتحدة هنا، وحتى تصل شكواك إلى مجلس الأمن، نكون نحن قد دفنا بقاياك الميتة، وصلينا عليك صلاة الجنازة!

كنت مستمتعًا جدًّا وأنا أرى رئيسي يجعل (شربل) المدعي هذا يصاب بقدر كبير من الهلع والرعب، ورغم أنه حاول إخفاءه تحت قناع هدوئه الصناعي المزيف، لكن عيناه الحقيقيتان عكستا انفعالًا بشريًا واضحًا، فشل في منع ظهوره.

كانت تلك علامة طيبة على أن أفكاره وانفعالاته البشرية لا تزال تعمل بكفاءة، وهنا جاء دوري لأزيد من مخاوفه، فقلت له ببرود ثلجي حاولت ألا يكون مفتعلًا قدر الإمكان:

- سيد (شربل)، أو أيًا ما كان اسمك؛ إن وصيتك الخاصة بتحويلك إلى سايبورج تم تنفيذها للحفاظ على حياتك إذا ما تعرضت لخطر مميت، أما وقد فشلت محاولة تحويلك إلى نصف بشري ونصف آلي، ونسيت حياتك السابقة؛ فأظن أن وجودك الآن لم يعد له معنى، والأفضل تفكيكك والاستفادة من معدتك في حالات أخرى، تستحق الأجهزة التعويضية الإلكترونية أكثر منك!

كنت قاسيًا وباردًا جدًّا معه، لكن ذلك كان ضروريًا، مرة أخرى ظهر تدخل من (فايو)، الذي نقل إلينا (ديمتري) قوله:

- دعني أستجوبه بنفسي.. اسمح لي بمواجهته!

هذا أمر جديد وفاجأني ولم أعرفه من قبل! كنت أتوقع أن يكون (فايو) مجرد متلقٍ للأوامر، أشبه بجهاز كمبيوتر خارق بمواصفات غريبة وعجيبة، لكن أن يكون له إرادة حرة؟! أو أن يسأل ويطلب؟! يبدو أنها تعديلات حديثة من (ديمتري) له.

تخلت عن مكاني، وابتعد السيد (قاسم) أيضًا، وتم إظلام الغرفة، فانهالت سحابات مضيئة من البيانات المتداخلة.

كانت هناك ملايين وملايين من الحروف والرسوم والأشكال والبيانات بثلاث لغات، عرفت منها الإنجليزية والفرنسية، تنهال من حولنا، وكانت تتحرك في فراغ الغرفة، ثم تزحف لتمر فوق الجدران والستائر، وخلال دقائق تحولت غرفة الفحص الإلكتروني إلى شاشة سينما عملاقة.

ظهر رد فعل متوتر من (شربل)، وتتبعته نظراته البيانات المنهالة فوقه بقلق شديد، ثم بدأ يحاول إغلاق عينيه بإصرار، وأخيرًا ومع تحول البيانات المضيئة لتمر فوق وجهه، محدثة أزيزًا مخيفًا، وضع يديه حول وجهه، وراح يحاول حماية عينيه وأذنيه من الصوت والأضواء المبهرة، ثم انهارت مقاومته تمامًا أمام العمل البارع، الذي كان يقوم به (فايو).

كان الأخير يسحب البيانات المسجلة في ذاكرة الدكتور (شربل) المدمرة، ويعرضها أمامنا مباشرة، وكان من الواضح أن الرجل، الذي تعرض لمحاولتي قتل بطرق غريبة وقاسية للغاية، يخفي علينا أشياء كثيرة، يتذكرها ويعرفها بوضوح، لكنه يزعم أنه نسي حياته السابقة، بما فيها اسمه الحقيقي وصفته، والسبب الذي تعرض لأجله لمحاولتي اغتيال!

أخيرًا انهار تمامًا، فأطلق صرخة مروعة، وقال من خلال صراخه الذي يرج الحجرة رجًا:

- أرجوك أوقفه! أوقفه!

التفتُّ خلفي، لأرسل إشارة إلى (ديمتري)، دون أن يلحظ (شربل) ذلك، وخلال ثانية واحدة انسحب (فايبو)، الذي عاد مكانه كجثة نصف حية في مكانه المألوف في شقة (ديمتري)، وتوقف سيل البيانات المضيئة المنهمر، وأضيت أنوار الغرفة العادية.

جلسنا أنا والسيد (قاسم) نراقب (شربل)، الذي مرت عليه لحظات كانت أنفاسه خلالها متوترة، وصدرة يعلو ويهبط بقوة، بينما أظهرت مؤشرات الحيوية، المنعكسة أمامنا على الأجهزة الطبية المحيطة بنا، أن قلبه الصناعي ينبض بقوة، وأن عدد النبضات يفوق المعدل الطبيعي.. كاد أحد الأطباء يتدخل ليبطئ من نشاط القلب المفرط، لكن السيد (قاسم) أشار إليه ألا يفعل، فقد كانت حالة الانفعال التي يمر بها هذا الرجل غير العادي مفيدة لنا، في استجوابه ومعرفة حقيقته، التي يجتهد في إخفائها عنا، جدًّا!

أخيرًا هدأ تمامًا، واستعاد قلبه نشاطه الطبيعي في حدوده الآمنة، وسكنت أنفاسه، ثم أبعد عينيه عن وجهه، وتنفس بعمق مرة أو مرتين، قبل أن يقول موجهاً حديثه للسيد (قاسم):

- حسنًا يا سيدي، أنت تفوز، سأحكي لكم كل شيء، لكن على شرط!

تقريبًا عرفت شرطه قبل أن ينطق به، لكنني لم أتكلم، بل انتظرت أن يعلنه بنفسه:

- بشرط ألا تستعمل أيًا من تلك المعلومات، التي سأقولها لكم، ضدي، بأي شكل من الأشكال.. سوف تعتبروني شاهدكم، وسأعامل على هذا النحو!

نظرت تجاه السيد (قاسم)، فهز رأسه، واختلس نظرة سريعة، ذات مغزى، إلي.

هزرت رأسي بدوري، وكان قرارنا واضحًا وسريعًا جدًّا:

- نعم يا سيد (شربل)، إنك شاهدنا، ولن تُحاكم بسبب أي معلومات تُفصي بها إلينا.. إننا نقدر كلمتنا ونفي بوعودنا.

تنفس (شربل) بعمق، وتمتم وقد فارق صوته التوتر والخوف:

- ليكن ذلك.. سأحكي لكم كل شيء من البداية!

- لقد ابتلعه قبل موته مباشرة!

- وكيف تكون متأكدًا من ذلك؟!

- لأن الغلاف البلاستيكي لا يزال على حالته، لم تؤثر فيه عصابات المعدة على الإطلاق!

- ما معنى ذلك؟!

- أعتقد أنه كان يخشى على المادة المخزنة على القرص، لا بد أنها تحوي معلومات خطيرة، ومهمة بالنسبة إليه؛ لهذا احتفظ به ما دام يستطيع حمايته، ولكن عندما وجد نفسه مطارداً، ويوشك على السقوط في أيدي أعدائه، وتأكد أنه ما من سبيل أمامه للهروب؛ لجأ إلى حيلة (شمشون) الأخيرة!

تساءل المتحدث الثاني بدهشة، وهو يزوي ما بين حاجبيه:

- حيلة (شمشون)؟!

- نعم! (عليّ وعلى أعدائي)، المعبد ينهار فوق رؤوس الجميع، وعندما يبتلع القرص فإنه يدمره ويدمر ما فيه، ويضمن ألا يصل أحد غيره إلى الأسرار المحفوظة عليه.. إلا إذا...

- إلا إذا ماذا؟! ماذا؟!

كان دور الشخص الثاني، خلال تلك المحادثة القصيرة، هو طرح الأسئلة الغبية، مظهرًا بوضوح أنه لا يدرك الكثير من الحقائق حول تلك القضية، ولا حتى حقائق الحياة البسيطة ذاتها، وبالفعل فلم يكن الثاني سوى مسئول حكومي بليد، وتقليدي جامد التفكير، كالسلحفاة التي تحتمي بدرعها العظيم، وتستكين تحته ما شاء لها البقاء، دون أن تجرؤ على رفع رأسها للنظر إلى السماء ولو لمرة واحدة، في حياتها الطويلة السخيفة!

لقد كلفوه بالإشراف على التحقيقات الجارية، بشأن الظهور والاختفاء الغامض لبعض الدخلاء، وعمليات التخريب الغربية التي طالت منشآت ومقار سرية، بعضها تابع للحكومة والجيش والمخابرات الأمريكية، في كل مرة أظهرت كاميرات وأجهزة المراقبة أشخاصًا يفرون من دوائر المراقبة المحكمة، ويظهرون بعد تنفيذ المهام، بشكل يوحي بأنهم يتحدثون الجميع، ثم يمنحون السلطات الأمريكية عيونًا سوداء، وابتسامات صفراء، معلنين أنه لا أحد يستطيع تتبعهم، أو إلقاء القبض عليهم، ويختفون ببساطة مثلما ظهروا.. يتلاشون أمام عيون الكاميرات المسلطة، فلا يستطيع أحد القبض عليهم، أو تحديد الثغرة، الزمانية أو المكانية، التي يظهرون ويفرون من خلالها!

كانت تلك التحقيقات معلمة بإشارة (سري للغاية)، مثلما كانت معظم قضايا وحوادث التخريب العمد تحت بند حظر النشر، لكن تكليف شخص روتيني أمريكي، كالسيد الموظف الثاني، الذي كان غارقاً في الروتينية والبلاهة المكتبية، كان أمراً غريباً وغير مفهوم نهائياً، من الذي اختاره لهذه المهمة الجسيمة؟! وهل تم اختياره حقاً، أم جرى فرضه فرضاً على المحققين، الذين تولوا هذه القضية الغامضة من بابها؟! هل هناك أمور خلف الأمور، أم إن هناك من يتلاعب بالجميع، ويغل أيديهم بكل الطرق؛ حتى لا يصلوا إلى الحقيقة أبداً؟!!

كان السؤال الأخير لا يزال معلقاً في الفراغ، منتظراً إجابة عبقرية بقدر عبقرية السؤال نفسه، لكن الأول لم يهتم بإعطاء الرد أصلاً، بل كان يتأمل القرص الضئيل، المحفوظ داخل غلافه الحامي، مدركاً أن هذه القصة توشك أن تنتهي، والحقيقة تكاد تظهر، ليضع الجميع أيديهم عليها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



- 12 -

- كنا ثلاثة رجال.. أنا وشخص يطلق على نفسه (إيليتش)، ورجل ثالث لا أعرف اسمه!

- كيف بدأت علاقتكم ببعضكم؟!

- لم تكن ما يمكنك أن تسميه علاقة، بل مجرد صدفة عابرة جمعنا سويًا، صدفة إلكترونية إن شئت الدقة!

- أي أنكم لم تلتقوا وجهًا لوجه أبدًا؟!

- أبدًا! ولا مرة! ربما عرف الآخران بعضهما عن قرب، أو التقيا في مكان ما، لكن علاقتي بهما لم تتجاوز المحادثات عن بعد، وبتلك الطريقة تفاهمنا!

- هل عرفنا اسمك الحقيقي، أم كنت تتحدث إليهما باسم مستعار كما تعتقد أن اسميهما مستعاران؟!

- أنا رجل أحب الصراحة والحقيقة؛ لذلك سأخبركم أنني أخبرتهما باسم مزيف تمامًا!

- ألا ترى في ذلك تناقضًا؟!

- على العكس! إن إفصاحي عن اسمي الحقيقي كان سيضطرني إلى إخفاء كثير من التفاصيل المهمة عنهما، كنت سألجأ إلى الكذب والتحويل لإخفاء بعض الحقائق، التي يجب أن تبقى طي الكتمان، أما وأنا أستعمل اسمًا غير حقيقي، فيمكنني أن أتكلم ببساطة ووضوح، هكذا سأكون صادقًا معهما ومع نفسي!

- إذن فأنت أخبرتهما الحقيقة كاملة عدا اسمك الفعلي فقط؟!

- لا، بل أخفيت عنهما الكثير من الحقائق.

- يا إلهي! إنك تثير جنوني بتناقضك!

- إنه ليس تناقضًا من الأساس، لقد كنت مستعدًا أن أقول كل الحقيقة، لكن عندما توجست خيفة من مشروعاتهما، الأكبر كثيرًا مما توقعت، خفت أن أتسبب في ضرر عالمي يصعب السيطرة عليه؛ لذلك فقد أخفيت عنهما بعض الخطط والتفاصيل!

- والمشروع الرئيسي؟!

- ناجح بالطبع، وأنتم شهدتم على ذلك بأعينكم، غير أن الأمور سارت بشكل لم أتوقعه؛ لذلك فانا أعد قراري بإخفاء بعض التفاصيل عن شريكَيَّ كان ممتازًا في حينه.

- سيد (شربل)، هل يمكنك أن تخبرنا بتفاصيل ذلك المشروع الرئيسي من فضلك؟!

- يمكنني ذلك بالطبع، لكن السؤال المهم هو لكم أنتم؛ فهل بإمكانكم أنتم أن تفهموا هذا المشروع؟!

- سنبذل جهدنا، لا تقلق.

- حسناً، فليكن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما استدعاني السيد (قاسم داود) إلى مكتبه أحسست أن في الأمر شيئاً غريباً؛ فلم يكن ذلك الوقت ولا الطرف المناسب لاستدعاء كهذا.

كنا نوشك على بلوغ مرحلة مهمة للغاية في التحقيقات، وقد رضخ الدكتور (شربل)، الذي راح يوالينا بالاعترافات المذهلة.

في لحظة ما أحسست أن القضية تم حلها تقريباً، وكل الخيوط تكاد تتجمع في أيدينا، لم يبق سوى أن نضفر الخيوط المتنافرة سوياً، ونصنع من الخليط عجينة متماسكة، عجينة يمكن وضعها في الفرن، وتقديم قضية محكمة ومطبوخة جاهزة للسلطات.

تقريباً كنت أنا الأكثر تفاؤلاً وسط الفريق، بينما شملت الشكوك الآخرين، (يوسف) غلبه حسه الصحفي، وبشكل ما اعتقدت أنه كان حزيناً لأن القضية سوف تنتهي، ومع أن قرار حظر النشر كان لا يزال ساريًا، لكنه تملص منه ببراءة، عن طريق استعمال النشر الإلكتروني، باسم وهمي، وفي مواقع أجنبية، لفتح عيون العالم على ما يحدث في بلدنا.

لم أفهم غرضه بالضبط من فضح بعض الأسرار في هذا الوقت بالذات، لكن يبدو أنه كان مدفوعاً بأوامر سرية من قيادة المخابرات العلمية ذاتها، أما (ديمتري) فقد اعتبر أنه أدى دوره، متمثلاً في الطريقة المهمة التي خدمنا بها حين أتاح لنا استعمال أدواته شبه الحية، (فابيو).

الباقون كانوا يقومون بأدوار ومهام أخرى، وهذا جعل تلك القضية بشكل ما قضيتي بشكل شخصي، إذن فلم يطلبني رئيسي في مكتبه؟! خاصة أن استدعائه لي حمل لهجة رسمية أمقتها، وأتوجس خيفة كثيراً عندما أسمعها!

في مكتبه استقبلني الرجل ببساطة، كان مهمومًا وحزينًا، ورغم أنه اجتهد في إخفاء ذلك، وفي محاولة الظهور بمظهر طبيعي، إلا أنه أخفق في ذلك، وبدأ فعليًا غاضبًا ومكتئبًا، دلفت إلى مكتبه، فتلقاني محييًا بطريقة جافة، بدا صوته مكسورًا مشروحًا وهو يبلغني أمرًا نزل علي كالصاعقة:

- سيد (سامر رمضان)!

- سيدي؟!

- إنني أبلغك بشكل رسمي، بإيقاف التحقيقات في القضية رقم (55/421/ب) لعام 2022، وأطالبك بتسليم أي أوراق أو مستندات أو معلومات تتعلق بها بشكل رسمي، لأرشفتها وتسليمها إلى قسم الحفظ!

في البداية ظننت أنني أخطأت السمع، أو أسأت الفهم، وبلغت بي الصدمة التي أصابتنني حد أنني تخيلت أن السيد (قاسم) يمازحني، طبعًا كان الاحتمال الأخير مستحيلًا، خاصة مع ما يبدو على وجه الرجل من هم؛ لذا لم يكن هناك سوى احتمال واحد: أن ما يقوله حقيقة!

- سيدي.. ما معنى هذا؟!

من مكانه خلف المكتب، أجبني السيد (قاسم)، وهو يبذل جهده لإخفاء خيبة أمله:

- معناه أننا هنا رجال ننفذ الأوامر، والأوامر صدرت إلينا بإيقاف التحقيقات في تلك القضية، وإغلاقها، وختم الأوراق الخاصة بها؛ لأن ما بها لم يعد ساريًا للاستعمال أو استمرار التحقيق بشأنه.. هل أنا واضح بما يكفي بالنسبة لك؟!

كنت في موقف عسير، وما كان بإمكانني الاعتراض أو الرفض، لكنني، متمسكًا بالأمل الأخير، سألت رئيسي بلهجة صديق وليس مرءوسًا أو تابعًا:

- ولماذا يا سيدي؟! لقد قطعنا شوطًا كبيرًا في التحقيقات، ونكاد نضع أيدينا على من يهددون أمننا القومي، ويتلاعبون بنا، فلماذا...؟

قاطعني السيد (قاسم)، مستعملًا سلطته المطلقة لأول مرة بتلك الطريقة الفجة والقاسية، قائلًا:

- سيد (سامر)، لقد نقلت إليك الأوامر التي وصلتني من أعلى قيادات البلاد، وسلطات الأمن القومي، وما عليك إلا الامتثال والتنفيذ.. خلال ساعة واحدة تكون قد نفذت الأمر الصادر إليك، وأعطيتني ما يؤكد أن التنفيذ قد تم!

نظرت إلى وجهه، حيث لاحظت تحت قشرة السلطة والطاعة العمياء، ملامح حزن وغضب، وصدمة عميقة في عينيه الصريحتين، كنت أشم رائحة كريهة

فيما يحدث؛ ولذلك عقدت العزم على عدم تنفيذ الأوامر، مهما كلفني العصيان من ثمن ومخاطر لا أعرف أبعادها حتى الآن!

حيثه بتهديب، واستدرت مغادرًا المكتب، وخلال دقيقة كنت أبتعد عن ذلك المكان بأقصى سرعتي؛ إذ لم يعد بوسعي أن أتنفس فيه، ولو لدقيقة أخرى واحدة.

هرعت أستعمل المصعد لأخرج من هنا، وأعود إلى منزلي، فهناك، وبرفقة أحب شخصين إلي في الدنيا، (ديالا) و(كريم)، يمكنني أن أصفي ذهني، وأفكر في الأمر كما يجب!

كنت أتطلع إلى اللحظة التي تحتويني فيها جدران بيتي الحبيب، ولكنني لم أكن أتخيل أبدًا أن ثمة من يتربص بي، ليمنعني من تحقيق هذا الحلم البسيط، وأن الطريق إلى منزلي سيطول ويستغرق وقتًا أكثر مما كنت أتخيل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- وبعد أن عرضت عليهم الفكرة المبدئية؟!

- لقد سخرا منها دون شك، خاصة (إيليتش) هذا، لقد كان عصبيًا وغازبًا دائمًا، أنا لم أره أبدًا في الحقيقة، لكنني أظن، من خلال تعاملي الافتراضي الوثيق معه، أنه يعاني مشكلة نفسية عظيمة، إنه مليء بعقد كثيرة، كما أنه مغرور ومتسلط بدرجة هائلة.. تقريبًا أشد إنسان عرفته في حياتي تسلطًا ورغبة في فرض آرائه على الآخرين!

- وشريككما الثالث؟!

- أما هذا فقد كان كتلة من الغموض، يسمع كثيرًا، ونادرًا ما يتكلم، وتقريبًا لم يقدم إلا مداخلة أو اثنتين، وكان متحمسًا للمشروع، وحين بدأنا نجد من يهتم بأفكارنا راح يسدي إلينا نصائح مهمة، رفض (إيليتش) الاستماع إليها بإصرار، ووصمه بالضعف والغباء، لكن الثاني لم يكن يهتم بالرد عليه، وهذا ما كان يثير جنون (إيليتش) أكثر!

- وبعد ذلك؟!

- وجدنا متطوعًا وبدأنا التنفيذ!

- من كان هذا المتطوع؟!

- (إيليتش) نفسه!

- يا ربي!

- نعم، أراد أن يجرب الأمر عليه أولًا، وأعتقد أنه استمتع بفكرة أن يكون خفيًا، وأن يتحرر من جسده! لا أعرف لماذا كان يكره جسده بذلك الشكل العظيم، لكننا بالطبع لم نقبل بذلك!

- ولم لا؟!

- لأن (إيليتش) أحد أعمدة المشروع، وإذا فشلت التجربة سنخسر واحدًا، يمكنه تقديم راعٍ بديل للفكرة، في حالة إذا ما لحق بنا، نحن الاثنين المتبقين، سوء، وقد كان الرفض قاطعًا، خاصة أن زميلنا غير المعروف الاسم كان يشعر دائمًا أنه مطارِد، وأعلن لنا، أكثر من مرة، أنه يحس أن بعض الأشخاص يَجِدُون في أعقابهِ!

- هل تعتقد أن حياته كانت مهددة؟!

- بل أنا واثق من ذلك؛ لأنه اختفى فجأة وبلا سابق إنذار، ولم يعد يتصل بي أو بـ (إيليتش)!

- ماذا جرى له؟!

- لا نعرف! لم نجرؤ على تتبعه ومحاولة اكتشاف شخصيته الحقيقية، ومعرفة ما حل به، خشية أن نكون قد تورطنا أكثر من اللازم!

- ودكتور (لودج)؟!

- لا أعرف شخصًا اسمه الدكتور (لودج) على الإطلاق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخلت المصعد لأستقله إلى الطابق الأسفل.

كنت متوترًا وأحس بخيبة أمل مريرة، غصة هائلة في حلقي، وأصابع يدي ترتجف من شدة الغضب والانفعال.

لم أصدق أن جهود شهور مطلوب منا أن نتجاهلها، ونرمي بها في سلال الأرشيف، وتتخلى عن حلمنا بكشف سر تلك القضية الغامضة، وبعكس الآخرين في الفريق، فقد كانت تلك القصة تمسني بشكل شخصي؛ إذ إنني مررت بتجربة مواجهة فعلية مع أحد تلك المخلوقات، القدرة على الاختفاء والظهور وقتما تريد، وحببتي (ديالا) أيضًا نالها ما نالني، وفوق كل ذلك فأني شيء يمس أمن بلادي وسلامتها يطالني بشكل شخصي.

كيف يمكننا أن نتخلى عن كل ذلك بتلك البساطة؟!

لم يحدث من قبل، في أي قضية سابقة لنا، أن وُوجهنا بمقاومة من أعلى، لم يحدث أن تتعنت معنا السلطات، أو تحاول إفشال عملنا بتلك الطريقة، قرار

حظر النشر كان مفهومًا وضروريًا في حينه، لكن قرار إيقاف التحقيقات، وتسليم كافة أوراق القضية، وإغلاقها الآن، ما الداعي أو المبرر له؟!

خلال رحلة الهبوط بدأ عقلي يعمل سريعًا، كان ثمة رابط خفي وواهن بين ما يحدث الآن، وما حدث سابقًا، حواسي تلتقط رائحة كريهة، تكاد تكون خفية وغير محسوسة، وذهني يربط أحداثًا، لا يبدو أن لها صلة ببعضها، لكنه يصر على أنها مترابطة ومتصلة.

استغرقت في التفكير، حتى لم أعد ألحظ ما يجري حولي تقريبًا!

قبل وصولي إلى الدور الأرضي أحسست بوجود شيءٍ معي في المصعد!

تخيلت أن أحدهم نسي حقيبة أو غرضًا ما يخصه خلفه وذهب، يحدث ذلك كثيرًا في المصاعد، لكن ليس في مصعد بناية المخابرات العلمية الأردنية! لا بد أنني مخطئ أو واهم، استدرت لأنظر خلفي فلم أر شيئًا، لكن إحساسي المستنفر لم يفارقني.

مرة أخرى عدت أنظر أمامي مباشرة، متبعمًا الوصول إلى خط نهاية رحلتي، فشعرت بشيءٍ يحتك بي عن قرب، توترت، وتحفزت حواسي، تخيلت أنني أسمع صوت أنفاس واهنة تتردد في مكان ما حولي، من شدة خوفي رحت أدور وأدور في حلقات لا نهاية لها حول نفسي، كأنني فراشة كبيرة وضعوها وسط حلقة من النار المتأججة، عدت أنظر إلى المؤشر، راجيًا أن تنتهي رحلتي في أسرع وقت ممكن، مرت لحظة هداً بعدها كل شيء، فلم أعد أسمع أو أحس بشيءٍ غير عادي حولي.

ترى هل كنت واهمًا؟!

أخيرًا وصل المصعد إلى الطابق الأرضي، وانفتح الباب لأسترد أنفاسي الهاربة، هدأت الدماء في عروقي، وكف قرع الطبول الهمجية في رأسي، خطوات خارجًا لأغادر المصعد، وأتجه ناحية الباب الرئيسي للمبنى، هنا أحسست كأن هناك شيئًا يقف أمامي، اصطدمت بجدار غير مرئي، كدت أبتعد متراجعًا إلى الوراء، لكن فجأة أحسست بخور شديد، ضعف عام شملني، وكان هناك من امتص طاقتي كلها دفعة واحدة، سقطت على ظهري وأنا غير مدرك بعد لما حصل معي، مرت لحظة كانت عيناها فيها مغلقتين، ومن حولي سمعت ضجة كبيرة، وصوت صرخات، وأقدام تركض! الغريب أن كل تلك الفوضى كانت تتجمع وتلتئم من حولي، وحين تمكنت من فتح عيني أخيرًا، وجدت يدي على صدري، وفيه أعمدت سكين غاصت في لحمي حتى مقبضها!

تدفقت الدماء لتغطي صدري وقميصي، وبدأت تنساب من حولي، غامت الرؤية أمامي، ولم أعد أرى سوى نقاط معتمة تتراقص، وتتفرق وتندمج،

أمامي!

خلال ثوانٍ لم أعد هنا، لم يعد (سامر رمضان)، الذي عرفته طوال حياتي، موجودًا هنا، فقط جسد مستلقٍ على الأرضية الباردة، جسد كأنه بالون هائل مثقوب، وكدت أرى روعي، شريطًا طويلًا من النور والذكريات، تنساب خارجة مني، تفارقني وتبتعد عني، حاولت الصراخ فلم أفجح، وحين شعرت بعشرات الأيدي تتعاون على حملي، استسلمت لمصيري وقدري، فقط مددت يدي لأتشبث بصورتني (كريم) و(ديالا)، التي تلوح لي مودعة من بعيد جدًا، لكنني لم أستطع حتى أن أرفع ذراعي لأمسك بهما.

أخيرًا بدأت أرى الكون يظلم من حولي..

هل هذا هو الموت؟!

تلوت الشهادتين في قلبي، فلم يعد لساني يقدر على عبء إطلاق سراح الكلمات حرة من داخلي، تشهدت مرة أخرى، واستسلمت للأيدي التي تحاول رفعني، وحملي بعيدًا، سمعت صراخًا وأوامر لا نهاية لها، تصدر من الفراغ حولي، فلم أعد أميز الاتجاهات، أو أحسن تحديد يدي اليمني من يسراي، التي استرخت بجانبتي ككتلة هامة؛ إذ إن الطعنة قد أصابت الجانب الأيسر من صدري!

آخر ما فكرت فيه هو:

- لقد وصلوا حتى هنا! وصلوا إلى هنا!

لكن لساني لم يسعفني بنطق تلك الحقيقة المرعبة، وإعلانها لكل من حولي بهذه البساطة.

في الثانية التالية لم يعد بإمكانني النطق بشيء، أو التفكير في شيء؛ لأنه لم يعد ثمة شيء حاضر في هذا الوجود..

حتى أنا..

حتى أنا لم أعد موجودًا أيضًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد يومين على تعرض السيد (سامر رمضان) لمحاولة اغتيال آثمة، في قلب مبنى المخبرات العلمية، تلقت القيادة العامة للمخبرات العلمية الأردنية رسالة مشفرة من نظيرتها الأمريكية، جاء فيها أنهم توصلوا لبعض المعلومات السرية والبالغة الخطورة حول قضية (المتسللون)، وهو الاسم الذي اصطلح على إطلاقه على تلك القضية الغربية، وأن لديهم وثائق سرية تخصها، وأنهم على علم بأن نظيرتها الأردنية تتحفظ على بعض المعلومات والأسرار الخاصة

بنفس القضية، وأن هناك رغبة لدى القيادة الأمريكية في بدء عملية تبادل وتعاون وثيق ومفيد للطرفين.

وكإظهار لحسن النية المبدئي، وكبادرة تعاون مؤكدة، تشير المخابرات العلمية الأمريكية إلى أنها تملك معلومات ووثائق تخص دور من يسمى الدكتور (شربل)، وآخرين، في تلك القضية، ومستعدة لإطلاع المخابرات العلمية الأردنية عليها.

وأضافت الرسالة أن المخابرات الأمريكية ترغب في تعيين ضابط اتصال مكلف من قبل المخابرات الأردنية لتنسيق الجهود، وتخطيط عملية تبادل المعلومات بين الطرفين.

استقبلها السيد (قاسم داود)، الذي نُقلت إليه الرسالة بشكل فوري من القيادة الأردنية، وقرر اختيار أفضل العناصر والكفاءات، التي تعمل تحت قيادته، للقيام بدور ضابط الاتصال الكلف بالتعاون مع الجانب الأمريكي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت في منزلي سليمًا معافى، لكنني لا أزال تحت تأثير الصدمة المروعة التي تعرضت لها، صحيح أن الأمر كله كان متوقعًا بالنسبة لي، وأخذت ما يكفي من احتياطات، غير أن ذلك لم يمنع شعوري بالرعب والهلع، كلما تذكرت الجرأة التي يتمتع بها هؤلاء الأعراب، الذين لا يعرف حقيقتهم الكاملة أحد، لدرجة أنهم اخترقوا أعلى مستويات التأمين والحماية في كل أنحاء العالم!

اقتربت مني (ديالا)، وأنا غارق في العمل على حاسوب النقال، وقدمت لي شرابًا ساخنًا، وكوب ماء، وحبّة من دواء صداع قوي.

لم أكن أعاني صداعًا أو دوارًا، ولم أطلب منها إحضار شيء من الدواء لي، لكن زوجتي العزيزة، وكعادتها، تبالغ في رعايتي وتدليلي.. ابتسمت لها شاكرًا، وتناولت الشراب، مكرّرًا امتناني الحار، مشفوعًا بلفطة غرامية حارة، ابتسمت (ديالا) وهزت رأسها، فتحرك شعرها الجميل حول رأسها وكتفها كأموج رائعة تتكسر حول شاطئ لazorدي فاتن، ذكرني منظرها برحلة البحر الميت، التي لم نستطع اللحاق بها للأسف، وتمتت في سري:

- متى تنتهي تلك القضية اللعينة لأتمكن من الحصول على قدر من الراحة والاستجمام، ويتاح لي أن آخذ عائلتي في رحلة ممتعة وطويلة ننسى بها كل ما حدث؟!

كنت أكلّم نفسي، لكن (ديالا) عرفت فيم أفكر، دون حتى أن أنطق به، ولم أكن مندهشًا إطلاقًا لذلك.

لمست ذراعي برفق، وقالت مخففة عني عبء أفكاري:

- لا تقلق بشأن رحلتنا الملغاة، سوف يأتي الوقت المناسب لنقوم بها يا حبيبي.

جلست على مقربة مني، وأخذت تطالع مجلة من تلك المجلات النسائية، المليئة بالصور والأشكال الناعمة المبهجة المصقولة، قلت لها مداعبًا لأثير غيظها:

- إنني أحسدكن! كل حياة النساء بهجة وألوان وأطفال وطعام ومرح.. ليتني كنت منكن!

كانت (ديالا) تعلم أنني أمارحها، وأنتي أعرف جيدًا أن الأمور ليست مثلما أقول أبدًا، فأطلقت ضحكة رنانة، جعلت قلبي يرتج في داخل صدري، وهتفت ساخرة:

- نعم، ليتك كنت منا لتسعد مثلما نحن سعيدات! هل تحب أن تبدأ بلف المحشي الليلة معي؟!

زويت ما بين حاجبي حين سمعت سيرة المحشي، رغم عشقي له، وأجبت مستنكرًا:

- تخيلي! إن الطعنة التي تعرضت لها أهون عندي من لف أصابع المحشي! لماذا ترفضين استعمال ماكينة اللف التي في المطبخ، وتصرين على فعل ذلك بيديك الجميلتين؟!

تجاهلت (ديالا) الجزء الأخير من كلامي، وطرحت علي سؤالًا لم تحب أن تتحدث عنه سوى الآن، خشية أن تسبب لي كدرًا بتذكر الحادثة المرعبة التي تعرضت لها، منذ ثمانية وأربعين ساعة:

- (سامر)، لماذا فقدت وعيك، وأصابتك أعراض الصدمة العصبية، ما دامت الطعنة لم تصبك في الحقيقة، وكنت مستعدًا لشيء كهذا؟!

كان ذلك سؤالًا مهمًا جدًّا..

الحقيقة أن ما حصل مع الدكتور (شربل)، وحوادث القتل الغامضة التي تعرض لها آخرون على علاقة بتلك القضية، وحادسي الشخصي القوي، وتنبهي الدائم للخطر، منذ أن أطلق نحوي ذلك المجنون رصاصاته الثلاث الغادرة، كل تلك العوامل جعلتني في حالة تاهب قصوى ودائمة، وفي ذلك اليوم، الذي حدث فيه المحاولة، وقبل مغادرتي للبيت، تلقيت فيضًا من المعلومات، الذي وصلني بشكل خاص وشخصي، من معاون أمريكي، كنا قد تعاوننا معًا في قضية تخصه، ولم تكن المخابرات العلمية الأردنية، على صلة بها.

وقد ساعدته، حينئذ، في حل جزء كبير من القضية، وأظن أنه أحب أن يرد إلي الجميل، فأخبرني في رسالة سرية وشخصية عن معلومات تخص قضية (المتسللون)، وصلته من خلال عمله في قطاع أمني أمريكي، ومن خلال تفحص الوثائق والتسجيلات، التي تركها خلفه شخص غامض، يدعي الدكتور (لودج)، والذي تعرض لعملية اغتيال واضحة في (مانهاتن)، الأسبوع الماضي، ومن خلال تلك الرسالة، علمت أن أراضي (الأردن) كانت من بين الأماكن المستهدفة بالتجارب السرية، وأنهم زرعوها بيننا عددًا من هؤلاء المتسللين، ودعموهم لتبدأ تحركاتهم بيننا، بطرق غاية في السرية والبراعة.

والغريب أنني وجدت اسمي، ضمن قائمة من مائة وعشرين رجل مخابرات آخرين، تم تسجيل أسمائهم وبياناتهم وتخصصاتهم بدقة، منتشرين في أكثر من ثلاثين دولة عربية وأجنبية، كأهداف محتملة للتخلص منهم!

لم أعرف تمامًا سبب استهدافي أنا بالذات بالاغتيال، لكنني احتطت للأمر جيدًا، من خلال فحصي لقضايا الاغتيال السابقة، التي تورط فيها هؤلاء المتسللون، وجدت أنهم يميلون لاستعمال الأساليب العنيفة في تنفيذ جرائمهم، ربما رغبة في إحداث أكبر ضرر للضحية، حتى وإن نجا من الموت، أو لتخويف وترهيب الآخرين، ممن قد يبدؤون حملة لمطاردة المتسللين، وتعقبهم واصطيادهم.

كان الطعن هو الوسيلة الأقرب لاستخدامها ضدي، وضد الآخرين ربما، لذلك جهزت قميصًا عاديًا، لكنه كان محشوًا بوسائد هوائية، منتشرة حول الكتفين والصدر والبطن، كل وسادة منها مليئة بفقاقيع خاصة معبأة بدماء مزيفة.

بالطبع كان بإمكانني حماية نفسي دون أن أعطيهم مظهر الذي تعرض لإصابة قاتلة فعليًا، لكن هدفي كان جعلهم، هم أو من خلفهم، يظنون أنهم نجحوا في مسعاهم، فتزيد جرائمهم، ويقدمون على تنفيذ اغتيلات أخرى، وقد تكون تلك الوسيلة للإيقاع بهم، والوصول أخيرًا إلى حقيقة تلك القضية المعقدة جدًّا!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لكنك إن كنت لم تصب فعليًا، فلماذا فقدت الوعي، وأصابتك تلك الصدمة العصبية القوية، التي أشعرتك أنك ستموت حقًّا؟!

- لا أعرف يا سيدي! لكنني أحسست، بمجرد اقتراب الشخص الخفي مني، بصعوبة في التنفس، وألم في صدري، وحتى برودة ورعشة في أطرافني! إن لهم وجودًا ثقيلًا!

استدار السيد (قاسم داود) نحوي بمقعده، وواجهني بشكل كامل، وهو يقول باهتمام شديد:

- لهم وجود ثقيل؟! ماذا تعني يا (سامر)؟!

بللت شفتي الجافتين بلعابي، وتنفست بعمق لثوان..

كنت لا أزال تحت صدمة الموقف الذي تعرضت له، وما زالت آثار الخوف والمفاجأة والرعب تشل قدرتي الكاملة على التفكير أو التعبير، فرحت أختار كلماتي بدقة وعناية، حتى أصف ما أحسست به بأمانة، وقلت ببطاء:

- لا أعرف! لكن بمجرد أن يقترب منك أحدهم حتى تحس بشعور مقبض ثقيل، وأن هناك قوة تسحب الهواء من حولك، ويمتص طاقتك ويستنزفها نحو الخارج!

لمعت عينا السيد (قاسم)، ويبدو أنه قد خطر له أمر ما مهم جدًّا، فبقي صامتًا للحظة، ثم هتف وهو يسأل نفسه، أكثر من كونه يوجه سؤاله لي أنا:

- وجودهم مقبض وثقيل، ويسحب الهواء، ويمتص الطاقة؟!

ثم صمت للحظة وواصل بنفس اللهجة المستغرقة في التفكير:

- ترى لماذا كان الدكتور (شربل) يشتري تلك الكميات الكثيرة من البيض الفاسد؟!

لم أدرك العلاقة بين ما قلته الآن، وما كان يفعله (شربل) هذا قبل محاولة قتله، للمرة الثانية، وتحوله إلى (سايبورج).

لمعت فكرة ما في ذهني، وبدأت أفكر:

- ترى هل هناك رابط بين الأمرين؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على مدى ثلاثة أيام، واصل المحققون انتزاع الاعترافات من الدكتور (شربل)، أو من الصورة نصف الآلية التي تحول إليها.

واصلوا انتزاع الاعترافات انتزاعًا؛ لأن الرجل كان يعاني بالفعل من انقطاعات وثغرات غير مفهومة في ذاكرته المنقولة.

صحيح أن الفحوص، وتدخل (فايبو)، أثبتت كلها أن ذاكرته السابقة في حالة ممتازة، وأنه حرفيًا يستطيع تذكر أي شيء من حياته قبل تحوله إلى سايبورج نصف آلي، لكن حالة الانقطاعات في ذكرياته تلك كانت غريبة جدًّا.

لم نفهم الأمر في بدايته، كان (شربل)، الموضوع فوق مقعد مريح كبير، والذي تم توصيل جميع أعضائه الصناعية بأقطاب ومحفزات طاقة، تمده بالقوة اللازمة، ليبقى منتبهًا، وقادرًا على التفاعل وإعطاء الأجوبة، لعدة

ساعات متصلة؛ يتكلم بشكل عادي، ويحاول أن يجيب عن كل سؤال بشكل كامل، ويبدو أنه استسلم أخيرًا، وقرر أن يكون أمينًا وصادقًا معنا؛ فقد تأكد أننا الجهة الوحيدة التي تستطيع توفير الحماية له، وأن تعاونه معنا يضمن له ألا يتعرض لمحاولة ثالثة للتخلص منه.

- إنه يتكلم بأمانة، لكن لماذا يتوقف عند نقاط معينة، ويصر على أنه لا يتذكرها؟!

سألت (ديمتري) فأجاب (يوسف) بدلًا عنه بحقد:

- إنه يتظاهر بالنسيان! هذا رجل ماكر وغد، حتى وإن كان نصفه يتكون من الحديد!

كنت أقف بجوار الاثنين، خارج غرفة التحقيق المحصنة، نستمع إلى الحوار الدائر بين (شربل) وبين المحققين، الذين أوكلت لهما مهمة استجوابه، وكان أحدهما من رجال المخابرات العلمية المحنكين، والآخر محققًا مكلفًا من قبل إدارة الأمن القومي العليا، ومع استغراقي في سماع ما يقوله رفيقي، لكنني انتبهت لعبارة (يوسف) المليئة بالكراهية تجاه (شربل)، فسألته بدهشة:

- لماذا تكره هذا الرجل بتلك الدرجة يا (يوسف)؟!

نظر إلي وقال والحقد يفور من خلال نبرات صوته:

- هذا الشيء المشوه كان سبب كل ما حصل! هو الذي تسبب في كل تلك الحوادث، وفي محاولة قتلك، وفي كل شيء آخر.. هل نسيت أنه جاء وجاءوا هم في أعقابه؟! هو من أدخلهم إلى بلادنا!

كدت أرد عليه، لكن السيد (قاسم)، الذي جاء من خلفنا، دون أن ننتبه لدخوله، قال بهدوء:

- هذا غير صحيح يا (يوسف)، فتحقيقاتنا أثبتت أن عددًا من حوادث ظهور هؤلاء المتسللين، ومشاهدتهم من قبل العامة، قبل اختفائهم الغريب، حصلت قبل وصول (شربل) إلى (الأردن).. أي أنه ليس مسئولًا عما حدث بشكل نهائي.

كان حديث رئيسنا مقنعًا، لكن (يوسف) تتم بينه وبين نفسه بحقد قائلاً:

- عليه اللعنة!

تجاهلته، وأوليت كل انتباهي إلى الاستجواب الدائر في الغرفة الداخلية، كان المحقق، التابع لإدارة الأمن القومي، يطرح عليه سؤالًا مهمًا، وخطيرًا:

- هل تعتقد أن هناك من بين المسؤولين الرسميين في (الأردن) من يتعاون مع هؤلاء، أو يسهل لهم الدخول، وتنفيذ العمليات؟!

بدأ الدكتور (شريل) يجيب، وبدا عليه أنه فعلاً يريد الإجابة بأمانة عن هذا السؤال، لكن فجأة حصلت تلك الظاهرة المدهشة..

كان الرجل يتكلم بهدوء، تخرج الكلمات من فمه بانسيابية ودون جهد، ولم يكن بحاجة إلى محفز خارجي ليتكلم، أو دافع لإرغامه عليه، بل كان يتحدث بشكل طبيعي، وبدا أن ذاكرته بخير، وتسعفه بفيض من المعلومات والحقائق والأسماء والذكريات المخزنة، وكل شيء، لكن بغتة انقطع عن الكلام! تلثم في منتصف العبارة الثانية، توقف للحظة، ثم بدأ يحاول التحدث من جديد، لكنه لم يستطع، فتح عينيه على اتساعهما، وراح يحدق في وجوه المحققين بدهشة شديدة، وكأنه يراهم، أو يكتشف وجودهم للمرة الأولى، ثم ظهرت عليه أعراض صدمة غريبة، وتوقفت عيناه عن الحركة الطبيعية، واكتست نظراته ببياض وخواء كامل، فلم يعد هناك أي نوع من التعابير في عينيه، بل تحولتا إلى مجرد صفيحتين براقيتين وخاويتين تمامًا!

زمجر (يوسف):

- هذا الوغد! يخدعنا ويتظاهر بأنه لا يتذكر شيئاً فجأة!

اقتربت من الزجاج أكثر لأرى بوضوح، ثم لم ألبث أن أدركت أن هذا غير كاف، فطلبت الإذن من السيد (قاسم) بدخول غرفة التحقيق، وعندما سمح لي المحققون بالداخل بذلك، توجهت فوراً نحو المقعد الذي يجلس عليه (شريل)، ودنوت لأراه عن قرب تام، بدا لي شاباً غريب الأطوار، ومختلفاً عما عمن في نفس سنه، وكان منظره يوحي برجل أكبر سنّاً بكثير من عمره الذي أخبرونا به، لكن كل هذا لم يكن يهمني، ما أدهشني حقاً وأثار انتباهي، هو الحالة التي هو عليها في تلك اللحظة.

شعرت لوهلة أن وعيه مستلب بشكل ما، وملامحه الخالية من كل تعبير أوحى لي بفكرة طارئة، فكرة مجنونة، فغادرت فوراً، وخرجت لأجد رئيسي وزميلي بانتظاري، تطلع السيد (قاسم) لي باهتمام شديد، وسألني بلهفة:

- ما الذي يجري يا (سامر)؟!

- هناك من يمارس سيطرة إلكترونية على دماغه! إنه تحت استلاب عالي الحساسية، يمارسه شخص ما عليه، عن بعد! أريد فحص جميع الشرائح الإلكترونية التي زرعت في دماغه بعد الحادثة!

أصابته الدهشة الجميع، لكن ما قلته كان منطقياً تماماً، فلا تفسير لتلك الحالة التي عليها (شريل) سوى أنه تحت تأثير قوة خارجية تمكنت من السيطرة

على دماغه..

لكن من يكون من يمارس تلك السيطرة، ويحاول سلب (شربل) وعيه،
وتحطيم ذاكرته السابقة؟!

إجابة هذا السؤال لا تساوي مليون دينار، بل تساوي كل الملايين والمليارات،
وحتى كميات الذهب، التي في العالم كله!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



نهار سبت حار..

العاصمة الأردنية (عمّان)..

وصلت إشارة إلى قوات الأمن بالعثور على السيد (ياسر حمدان)، وهو مسئول كبير في هيئة السلامة الوطنية، مقتولاً في شقته، في أحد أكبر أحياء (عمّان).

وفقاً للمظاهر الأولى لمعينة مسرح الجريمة، وُجد السيد (ياسر)، وهو رجل مطلق، في السادسة والأربعين من عمره، ملقى على أرضية شقته الفخمة، عارياً تماماً، وثمة عصابة سوداء على عينيه، يداه كانتا مقيدتين خلف ظهره برباط من أسلاك معدنية مشدودة بقسوة، حتى إنه تسبب في تمزق لحم الرسغين، وترك أثراً واضحاً على العظام، وطريقة القتل هي طعنة نافذة، وحوافها ضيقة جداً، تم توجيهها إلى القلب مباشرة.

كانت الشقة في حالة نظام كامل، كل شيء في موضعه الصحيح، وما من سرقة أو دلائل على عملية اقتحام غير شرعية، لكن مكتب القتل، كان يحوي ملفات عديدة تم انتزاع بعض الأوراق منها.

لاحظ المحققون، وهم يتجولون لجمع الأدلة، تحت إشراف رجال معمل جنائي مدرّبين، وعلى كفاءة عالية، أن بعض الملفات كانت أوراقها مرقمة، وقد وجد بعضها وهناك ثغرات بين الأرقام؛ مما دل على أن بعض الأوراق قد تم أخذها بعيداً، وإخفاؤها عمداً!

وقد عثر على الجثة، قبيل الفجر بنصف ساعة، من قبل سكرتير المجني عليه، وكان شاباً في الخامسة والثلاثين من العمر، وقد حضر السكرتير، بناء على مكالمة عاجلة من السيد (ياسر)، طلب منه فيها الحضور إلى منزله بشكل عاجل، ليسلمه أوراقاً هامة.

كان ذلك غريباً جداً؛ لأن السكرتير لم يكن يتعامل سوى مع الأوراق العادية، والمعاملات الإدارية، الخاصة بالمجني عليه، ولم يكن مطلقاً على أسراره أو وثائقه السرية!

- من كان يعيش معه في المنزل؟!

- لا أحد سوى خادمة تحضر صباحاً لتنظف المنزل، وتجهز الطعام، ثم تذهب في التاسعة مساءً، ولا تعود إلا صباح اليوم التالي.. إنه مطلق يا سيدي!

- والأولاد؟!

- ليس لديه إلا ولد وحيد، وهو مهاجر إلى (أمريكا) منذ بضعة شهور!
- (أمريكا)؟!

كان ورود اسم (أمريكا) في تلك الجريمة مهمًّا، رغم أنه لم يكن غريبًا، وبرغم أننا، كإدارة مخبرات علمية، لم تكن لنا علاقة مباشرة بجريمة قتل (ياسر حمدان)، إلا أنه تم استدعاؤنا لإطلاعنا على ظروف الجريمة، وسير التحقيقات الأولية، لسبب غريب..

السبب الذي طالما تكرر في هذه القضية الغامضة، دون أن نفهم له سببًا واضحًا:

- الغريب أن رائحة منزل القتل كانت غير مألوفة أبدًا، رائحة مقززة ونفاذة!

- لكن لديه خادمة تأتيه يوميًّا لتنظف الشقة!

- الأمر ليس مسألة تنظيف، لكن المرحوم كان يحيط نفسه بشيء غريب جدًّا، استخدمه بكثافة في غرفة مكتبه، وحمامه، وغرفة نومه، وحتى على ملابسه.

- وما هو؟!

- معجون البيض الفاسد!

- يا إلهي! بيض فاسد مرة ثانية وثالثة ورابعة؟! لماذا؟! لماذا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تلك مرحلة مهمة جدًّا في التحقيق في هذه القضية..

جمعنا ونسقنا كل الخيوط التي لدينا، وأولها خيط المشاهدات الحية، التي حصلت مع عدة شهود عيان، من بينهم الممرضة (جود)، والسائق الذي أصاب أحد المارة في الشارع خطأ، وتبع ذلك اختفاء جثة المجني عليه من موقع الحادث، وفحص شهادة المعلمين (سعيد) و(نزيه) شاهدي الحادث، ثم خيط اعترافات الدكتور (شربل) التفصيلية، إضافة إلى تسجيلات محاولة اغتياله الثانية، وخيط المعلومات التي حصلنا عليها من الجانب الأمريكي، بعد التنسيق معه، وعملية ضم الملفات وتبادل المعلومات، المتعلقة بالقضية، بيننا وبينهم، والتي أفادتنا كثيرًا في الحصول على المعلومات المسجلة من قبل من يسمى الدكتور (لودج)، وأخيرًا خيط جريمة قتل السيد (ياسر حمدان) الغامضة، وملابساتها التي تقطع بكون الجريمة الأخيرة مرتبطة بما نواجهه هنا منذ شهور، دون أن نعرف له سببًا، أو طريقة لاكتشاف الحقيقة الكاملة خلفه!

كان الجانب الأمريكي قد مدنا بتفريغ كامل، على حد ما أعلنوه لنا، لمحتويات القرص المدمج، الذي تم الحصول عليه من معدة الدكتور (لودج)، عقب عملية تشريح جثمانه، وكانت معلومات هامة جدًا، ومثيرة للربح، ولكنها لحسن الحظ، كانت تملأ ثغرات مهمة في كلام الدكتور (شربل)، الذي لا يزال يواصل التحدث إلينا، لكن حالة انقطاعات الذاكرة الغريبة التي تراوده، تمنعه من إعطائنا كل التفاصيل التي نريد التوصل إليها.

كنا نعمل هنا وهناك، ونجري في كل اتجاه، ونجمع ونرتب ونبوب المعلومات، ونفصلها في مجموعات مترابطة.

وبعد ليالٍ طويلة، ومرهقة جدًا من العمل، بدأنا نضع تصورًا كاملًا لما حدث بالضبط، ونفهم كيف بدأت القصة، وكانت قصة مذهشة ومرعبة، أكثر مما اطلعت عليه في حياتي كلها إثارة للربح، ولشكوكي الدائمة في سلوك الجنس البشري، وقابليته لأن ينقلب من الصورة القويمة التي خلقه الله عليها، ليتحول إلى حيوان لا يهتم سوى المال والسلطة، وفرض السيطرة على الآخرين، وتحويلهم إلى عبيد، من نوع مستحدث، عنده!

بداية القصة كانت عند الرجل المجهول، الذي جاء ذات ليلة لزيارة الدكتور (لودج) في منزله.

كان شخصًا غريب الأطوار جدًا، ووفقًا لمذكرات الأول، بدا أنه رجل مختلط الدم، أو هجين، أو خلّاسي، أي أنه يحمل صفات ومميزات عدة سلالات مختلفة.. رجل طويل جدًا، غير أن بشرته بها مسحة سُمر، لا تأتي عادة إلا من أبوين، أو أسلاف، من السلالة السمراء، في الوقت الذي كانت عيناه تماثلان العيون المغولية الشهيرة!

اندهش الدكتور (لودج) برؤية هذا المخلوق، المختلط الملامح، لكنه دعاه إلى الدخول.

الأمر الغريب الذي حدث، في بداية تلك المقابلة المثيرة جدًا، أن الدكتور، حين ذهب للحظة ليعد كأسًا لضييفه، عاد ليحده قد اختفى، فظن أنه غادر فجأة دون استئذان، وذهب ليتفقد باب منزله، ثم أغلقه جيدًا بالأقفال، وعاد إلى داخل الشقة، لكنه ما إن استدار حتى وجد ضيفه جالسًا في مكانه كما هو!

كان ذلك تلاعبًا خطيرًا بأعصاب (لودج)، لكن الحقيقة أن غرض الضيف لم يكن التلاعب، بل الإثبات، وتقديم الدليل العملي!

- ظننت أنك غادرت!

قالها (لودج)، بعد أن تمالك نفسه، وسيطر على أنفاسه المتهدجة، فقال له الخلاسي:

- من الطبيعي أن تظن ذلك، لكنني لو كنت مكانك لظننت شيئًا آخر تمامًا!
قدم (لودج) الكأس إلى ضيفه، وهو يسأله ببوارد قلق، بدأت تتسرب إلى نفسه:

- شيئًا آخر مثل ماذا؟!

رشف الضيف، الذي لم يكشف عن اسمه بعد، جرعة كبيرة من الكأس، ولاكها في فمه ببطء، تاركًا مضيفه يحترق من الفضول، ثم قال بهدوء وجدية تامة:

- كنت سأظن أن ضيفي شبح، أو على الأقل يستطيع أن يختفي مثل شبح، يا سيد (لودج)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هنا استعمل الضيف الاسم الحقيقي لدكتور (لودج)، وهو ما لم يفصح عنه لأحد أبدًا، فارتجف الأخير، وكاد يطرد ضيفه، بعد أن بدأ يستنتج، تقريبًا، شخصيته الحقيقية! لكنه وجد نفسه مرغمًا على الجلوس، والاستماع إلى ما يقوله الرجل الغامض، الخلاسي، الذي يبدو على علم بكل شيء.

هنا فقط أدرك (لودج) أن كل استنتاجاته السابقة كانت خاطئة تمامًا، وأن الأمر أكبر كثيرًا مما تخيل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الأمر مغلقًا بجو الأساطير والخرافات الخيالية، رغم أن الزائر قدم للسيد (لودج) أوراقًا مشبعة بالعلم الرصين، مخططات ومعادلات ونظم لتبويب المعلومات، ورسوم بيانية وجداول، إلا أن الأول شعر، وهو يقرأ الخطة الكاملة التي تحت أنفه، أنه يطلع على أحد كتب الخرافات الشرقية المحكمة، والمليئة بالإثارة وأجواء التشويق!

- كلنا نعرف أن فكرة نقل البشر آنيًا هي فكرة مستحيلة، لكن ثمة وسيلة لتحقيق المستحيل.

رفع (لودج) نحوه عينين متسعيتين من فرط الدهشة، فأكمل الآخر متممًا
عبارته الملغزة:

- لكن بطريقة أخرى!

كانت تلك الطريقة الأخرى تعتمد تقنية قريبة من التقنية المستخدمة في
تجربة (فيلاذلفيا) الشهيرة، التي تمت في عام 1943.. ضحك (لودج) حين قرأ
تلك العبارة في مخططات ضيفه، وقال متهكمًا، بعد أن فشل في إخفاء
اعتقاده بسخف هذا التفكير وعقمه:

- تجربة (فيلاذلفيا)! يا للبلهة! مشروع كامل يقوم على وهم، وتجربة خرافية،
يعرف العالم كله اليوم أنها لم تتم أبدًا!

أجابه الضيف، الذي لم يفقد ذرة من هدوئه واعتداده بنفسه، ويقينه في
فاعلية مشروعه، ونجاح فكرته:

- إنها خدعة الشيطان الكبرى يا سيدي! كيف يمكنك أن تصير تلميذًا مخلصًا
وتابعًا للشيطان؟! إن أفضل شيء لتحقيق ذلك هو أن تؤمن أن الشيطان
ليس له وجود على الإطلاق!

- ماذا تعني؟!

تساءل (لودج) في حيرة، وقد بدأ يتشكك في متانة موقفه، فقال:

- أعني أن عليك أن تتابع القراءة حتى النهاية يا سيدي!

وهذا ما تم بالفعل..

واصل الأول القراءة، حتى وضع يده على مفتاح النظرية، وسرها الأكبر..

إنها خليط من العلم والسحر، فصاحب الفكرة قد وجد طريقة للتغلب على
استحالة النقل الآني للبشر، بسبب استحالة تفكيك الجسم البشري إلى
جزيئات، وحتى إذا تحقق ذلك فإن كم السعة المطلوبة لنقل البيانات، التي
تفكك إليها جسم الإنسان المراد نقله، ستكون مخيفة، ولا يوجد وسيط آلي،
مهما بلغت كفاءته أو قدراته، يستطيع نقل هذا الكم، وبالسعة والاحتياطات
المطلوبة!

- إننا لن نفكك أو ننقل شيئًا، بل سنصنع جسدًا قادرًا على الاختفاء تمامًا، هل
سمعت عن الفانتا بلاك؟!

الفانتا بلاك!

طبعا سمع الدكتور (لودج) عن مادة الفانتا بلاك، المادة الأشد ظلمة في الكون، فهو متخصص في الفيزياء الكمومية، لكنه لا يزال لا يفهم علاقة مادة موجودة فعلا، بخواصها الفيزيائية المسجلة، مع نظرية غامضة عن إخفاء الجسم البشري:

- لماذا لا يمكنك كإنسان ملاحظة وجود مادة الفانتا بلاك حولك، رغم أنها موجودة فعلا؟!

كان السؤال مهماً، لكنه بسيط، و(لودج) يعرف الإجابة بكل تأكيد، وبسهولة:

- لأنها تمتص الضوء الساقط عليها، بنسبة مائة في المائة مع فارق كسر عشري واحد، وعندما يحصل ذلك تنزلق عيناك البشريتان، المهيأتان لرؤية الضوء المنعكس عليها من المواد، بأطواله المختلفة، من عليها وكأنها ليست موجودة.. أي أننا سنصنع إنساناً قادراً على امتصاص الضوء من حوله بنسبة مائة في المائة، دون كسور أو فوارق، فتصبح ملاحظته مستحيلة!

ارتفع حاجبا (لودج) حتى كادا يختفيان في مقدمة شعره، وهتف وقد بدأ ينفعل:

- مستحيل!

ابتسم الضيف قائلاً:

- عفواً يا سيدي، لكنني صنعت المستحيل فعلاً وقمت بتجربته أمامك منذ لحظات.. سيد (لودج)، يؤسفني أن أقول لك إنك سيئ الملاحظة بشكل مأساوي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الزائر فعلاً قد صنع المستحيل، طلاء يمكنه تحويل الإنسان إلى نسخة غير مرئية إطلاقاً، حتى آلات التصوير الدقيقة، والمجسات الضوئية، وأنظمة رصد الطاقة الحرارية، تفشل في ملاحظة وجوده:

- ليس لونه فقط، بل الطاقة الحرارية المنبعثة منه! هذه المادة تصنع هالة ثقيلة من السكون الحراري حول مستخدميها، فلا يمكن رصد الحرارة المنبعثة منه!

لكن كان للتجربة ثمن فادح، فبرغم إمكانية عكس تأثير المادة، أو إيقافه مؤقتاً، إلا أن الغلاف المصنع منها كان يجعل الجسم في حالة وهن، إلى حد أن القيام بنشاط معين، كان يستلزم إيقاف تأثيرها، وبالتالي إظهار مستخدميها رغماً عنه، كما أن استخدامها على المدى الطويل كان يشكل خطراً مميتاً:

- من يهتم يا رجل؟! إن كان لديك جيش من الرجال الخفيين الذين ترسلهم لتأدية مهمة ما، ويقومون بها بجدارة، فمن يبالي إن سقط بعضهم موتى خلال أيام؟! يمكنك أن تعتبره شهيدًا، وتمنحه ميدالية إذا شئت!

كان الزائر يتهكم، لكن (لودج) كان يفكر في شيء آخر وهو يراقبه عن كثب، متظاهرًا بأنه غارق في الأوراق والتقارير والمخططات التي تحت عينيه.. هذا المجد كثير جدًّا على هذا الخلاسي المختلط الغريب!

كان ذلك هو الخطر الثالث في المشروع كله، الخطر الذي لم يتخيله الزائر، الذي لم يسجل (لودج) اسمه أو صفته أو جنسيته، ولا أحد يعرف ما إذا كان ذلك تعمدًا منه، أم أنه ببساطة لم يعرف أبدًا اسم أو هوية ضيفه الغريب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- إذن فقد قتل (لودج) صاحب الفكرة الأصلي؟!!

- نعم! واستولي على مخططاته وفكرته وأوراقه، بعد أن تخلص منه بطريقة لم يسجلها في اعترافاته المحفوظة على القرص المدمج، بل ترك تلك التفصيـلة عمدًا، ثم بدأ يجرب تنفيذ الفكرة المجنونة.. والتي نجحت بالفعل!

- كانت التكلفة مهولة، لكنه وجد ممولًا، رجل أعمال معروف على مستوى العالم، رجل أعمال مختل عقليًّا، وضع أمواله في مقابل تنفيذ حلم طفولي بأن يظهر وسط أصدقائه فجأة ويقول لهم: مرحبًا هذا أنا!

ابتسم (ديمتري) عند سماع العبارة الأخيرة، لكن السيد (قاسم) واصل، وهو يعرض علينا خلاصة ما تركه (لودج) من تفاصيل واعترافات خلفه، قبل موته:

- غير أن الأمور لم تسر على ما يرام؛ فالفكرة جذبت زبونًا محتملًا آخر! وهذا الزبون هو قائد أمة!

- رئيس دولة تقصد؟!!

- نعم، رئيس إحدى دول (أمريكا الجنوبية)!

- الجنوبية؟! لكنها قارة نامية وفقيرة، ومستوى أغلب دولها مزير وسيئ!

- نحن لا نتحدث عن دولة تشتريه لنفسها، بل عن قائد دولة ديكتاتور، ومجنون، وشديد الثراء، ويريد شراء المشروع لاستخدامه الشخصي، ومخططاته الخاصة به!

- نعم؟! وماذا سيفعل بفكرة كهذه؟!!

- نفس ما فعله (دي سانتا آنا) ديكتاتور المكسيك برجله المبتورة، حين كرمها ومنحها الأوسمة ودفنها في جنازة شعبية مهيبه!

لم أستطع منع نفسي من الضحك عند تلك النقطة، ثم واصل السيد (قاسم)، بعد لحظة صمت، شرب خلالها كوبًا من الماء:

- لكن (لودج) كان يريد عرضًا أعلى بكثير، فوضع قائمة بالمشتريين المحتملين، وبدأ يدور عليهم ليعرض الفكرة، والنموذج الذي يثبت إمكانية تحقيقها، ولكنه في الوقت الذي كان يجمع فيه العروض المختلفة كان يجمع، في نفس الوقت، كتائب من الأعداء! وهم أولئك الزبائن الذين تقدموا بعروضهم ورفضها، كلهم كَوَّنوا جبهة ضده، خشية أن يعطي الاختراع لغيرهم، فيُستعمل ضدهم في نهاية الأمر!

- وهكذا وجد (لودج) نفسه في وضع لا يحسد عليه، خاصة حين دخلت الدول العظمى على الخط، فأصبح عليه أن يبيع الاختراع ليس لمن يستطيع أن يقدم العرض المالي الأعلى، بل لمن يقدر على توفير الحماية الكافية له! ومن غرابة حكم الأقدار أن أحدًا لم يرغب في حمايته، فقد كان موته يخدم الجميع!

- والاختراع؟!

- لقد سُرق منه! حصل أعداؤه على نسخة كاملة من مخططات الخلاسي المجهول، ونفذوا ما بها، وكونوا جيشًا من الأتباع غير المرئيين، جيشًا من العبيد المخلصين، الذين لا يعرفون أن السلاح الذي يستخدمونه ضد غيرهم، سيقضي عليهم في نهاية الأمر! لذلك كان عليهم صنع المزيد والمزيد منهم طوال الوقت، جندوا الألوف، ولكن...!

- ولكن ماذا؟!

- هناك عقبة في طريقهم!

كدت أموت من الفضول وأنا أسأل بلهفة شديدة:

- ما هي؟!

إلى جوارري كانت عينا (ديمترى) تعكسان رغبة حارقة في معرفة الإجابة، فأجاب السيد (قاسم):

- إنه الدكتور (شربل)! لقد عمل في مراحل تصنيع المحاربيين الخفيين الأولى، ورغم أنه لم يكن يملك سر المادة ولا تركيبها الكيميائية، إلا أنه بعبقريته وذكائه الاستثنائي تمكن من اكتشاف هذا السر! لهذا ظنوا أنهم في أمان، وأنه رجلهم، لكنه هرب بعد رفضه ما كانوا يخططون له من شر، ورغبة في إحكام سيطرتهم على العالم!

- يا له من رجل نبيل!

علق (يوسف) متهكمًا، فقال السيد (قاسم):

- في الحقيقة، نعم يا (يوسف)، الدكتور (شربل) رجل نبيل فعلاً، صحيح أنه أبقى الأمور طي الكتمان، ورفض مساعدتنا لفترة، لكنه كان يظن أن في الأمر خطرًا عليه، وحين أدرك فداحة الأمر تكلم!

- والآن يا سيدي؟!

- إن (شربل) يعرف كيفية إيقافهم؛ ولذلك حاولوا قتله مرتين!

- إذن هل يمكننا إيقافهم؟!

- نعم، و(شربل) يعرف الطريقة.. لكن علينا حمايته أيضًا!

قلت بخوف وحذر شديدتين:

- هل هو معرض للخطر مرة أخرى؟!

بملامح مستاءة أجاب السيد (قاسم):

- نعم بكل أسف! ويؤسفني أكثر أن أقول إن جميعنا معرضون لذلك الخطر؛ فالأمريكيون لم يضعوا أيديهم على المدير الرئيسي لعملية نشر المحاربين المتسللين بعد!

لا أعرف لماذا تخيلت أن رئيسي يبالغ في تخوفه من الخطر، الذي يظن أنه يهددنا جميعًا..

لكنني لم أكن أعرف كم كنت مخطئًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



- (إيليتش)! أنت تخوننا؟!

كان الرجل ذو السترة الجلدية غاضبًا بحق، غاضبًا بشدة، لقد اقتحم غرفة (إيليتش) المعزولة، وركل مساعدته خارجًا، ضربها بقدمه ورماها خارج الباب.

لقد كانوا يشكون في هذا العالم الجهيد، المليء بالحقد والكراهية، منذ وقت ليس بالطويل، كان له دور بارز في تطوير البرنامج، واقترح تطويرات كثيرة للفكرة، لم ينفذ منها شيء؛ لأنهم كانوا يستخفون بأمره منذ بداية الأمر:

- إنه مجرد أحرق مربوط إلى كرسي متحرك، ولا يمكنه أن يتكلم أو يفكر إلا من خلال نظامه اللعين، وبرغم ذلك يدعي الحدق والمهارة، ويريد أن يكون المهيم على كل شيء.. سحقا له!

كان هناك اثنان أو ثلاثة، ممن قاموا على تطوير سلاح المحاربين غير المرئيين، لصالح المنظمة بالغة القوة والسرية، التي قامت بشرائه، أو بشراء النسخة المسروقة منه؛ يكتون كراهية واحتقارًا عظيمًا للمدعو (إيليتش)؛ فقد ساءهم أن يرميهم بالغباء، وأغضبتهم رغبته في أن ينفرد بقيادة المشروع دونهم؛ لذلك أضمروا له الشر!

ترصدوه وبحثوا خلفه جيدًا، حتى علموا أنه، ومن خلال تقنيات اتصال مذهلة مخبأة في برنامج (ACC) الخاص به، تمكن من إرسال تفاصيل غاية في السرية والخطورة عن المشروع إلى سلطات ثلاث وعشرين دولة، من تلك التي كانت أراضيها مركزًا لإجراء تجارب نشر المحاربين غير المرئيين، وأنه أيضًا أرسل تحذيرًا مبطنًا إلى (شربل)، قبل محاولة قتله الأولى، مما دفع الأخير إلى اتخاذ احتياطاته، ومحاولة حماية نفسه.

صحيح أن الفكرة الأخيرة أخفقت تمامًا، لكن (شربل) نجا من الموت مرتين، كما أن (إيليتش) فضح الأمر بما يكفي، وحصل على الانتقام الذي يريده.

لكن الآن جاءت المرحلة الأخيرة من اللعبة..

الانتقام المضاد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الرجل المقعد تحت رحمتهم تمامًا، لكنه ظن أنهم لا يجرعون على التضحية به؛ لذلك توقع أن يحرموه من بعض ميزات، والأنظمة التكنولوجية الفائقة الحداثة، التي صُمم كثير منها خصيصًا لأجله، غير أنهم كانوا يخططون لما هو أكبر!

الطويل النحيل، الذي يلف نفسه دائماً في معاطف جلدية واقية من المطر، بحاجة وبدون حاجة، كان يكنُّ كراهية شديدة، واحتقاراً لا نهاية له للمدعو (إيليتش)..

كان يكره مظهره المزري، ويراه كتلة من اللحم الهامد، تحاول فرض سيطرتها على الأصحاء النابهين؛ لذلك كانت تلك فرصته العظمى للانتقام!

وحين اقتحم الحجرة لم يكن ينوي إلا الانتقام الكامل، لذلك ألقى المساعدة خارجاً، وانفرد مع (إيليتش) وحده، وبعد أن أشبعه سخرية وتحقيراً، انتزعه من فوق مقعده، ورمى به أرضاً بقسوة شديدة، سقط الأول على وجهه، وفكر في أنه لو كان شخصاً مختللاً، لأمكنه حتى أن يزحف لابتعد عن قدمي ذي المعطف الحاقد، لكن الأخير لم يعطه فرصة حتى للقيام بتلك المحاولة البائسة، فقد أسرع ليضع قدمه الغليظة فوق رأس (إيليتش)، الملقى على وجهه بلا حول ولا قوة، وراح يصرخ فيه بقسوة:

- بماذا تشعر الآن يا (إيليتش)؟! بم تحس الآن أيها الوغد؟!

كان (إيليتش) عاجزاً حتى عن الرد عليه، وبعد أن أفرغ حقدَه وغضبه، نهره الطويل النحيل قائلاً بتشفٍّ ظاهر:

- لقد أرادوا قتلك، لكنني قررت العكس، ستبقى حيّاً يا (إيليتش)، ستبقى حيّاً يا كتلة اللحم، لكنك ستظل ملقى على الأرض بقية حياتك، دون أن تقرب نظامك اللعين مرة أخرى! يمكن للأرض أن تكون فراشك ما دمت حيّاً، وسنضع لك مرتبة لتقضي فوقها سنوات شيخوختك القادمة.. إنها مكافأتك التعاقدية الضخمة؛ مرتبة محشوة بالقش!

تركه ملقى على الأرض وذهب، ومن خلال عينيه الملتصقتين بالتراب، رأى (إيليتش) ظله وهو يغادر الحجرة كالإعصار، وأدرك أن أمره، بدءاً من تلك اللحظة، قد انتهى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

واصل الدكتور (شربل) سرد قصته المذهلة، ووصف كيف التأم شمله هو ورجلين آخرين، قدم كل منهما نفسه باسم مستعار، وهو كان يعلم ذلك، على الرغم من أن كلا منهما كان يزعم أنه اسمه الحقيقي، ومن خلال وصفه للمحادثات والتبادل الإلكتروني الذي جرى بينهم، تأكّدنا أن أحدهما كان الدكتور (لودج)، والآخر غير معروف لنا.

خيّط آخر غامض في تلك القضية المعقدة..

وفقاً للرواية الكاملة، التي حصلنا على جزء منها من (شربل) نفسه، وبقيتها من خلال تسجيلات القرص المدمج الخاص بدكتور (لودج)، اتضح لنا صورة

مفزعة، صورة لثلاثة رجال مجانيين، لم ير أحد منهم الآخر، أو يعرفه بما يكفي، اتفقوا على تنفيذ خطة خطيرة من أجل تحقيق هذا الحلم الطفولي الساذج، الذي يحاكي محاولات الدكتور (هيل) ومساعدته المزدوج في حلقات كارتون السبعينيات الرديئة: حلم السيطرة على العالم!

كل ذلك كان مفهومًا، ورغبة (لودج) في التخلص من شريكه، خاصة بعد أن تلقى عرضًا بأن يشرف على تنفيذ المشروع وحده، ويقدم كل أسرارهِ على طبق من ذهب للمشتريين، مقابل مكاسب مالية هائلة، ويبدو أن الأخير انخدع بالصفقة المشبوهة، لكنهم تخلصوا منه في نهاية الأمر، وحاولوا التخلص من (شربل)، وظل مصير الشريك الثالث غامضًا، فإن لم نعرف من هو، فلن نعلم أبدًا كيف انتهى به الحال، أو ماذا كان مصيره!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أنا آسف! علي أن أقول ذلك، لقد كنتم كرماء ومتسامحين جدًا معي، وقمتم بحمايتي وعلاجي وتوفير كل وسائل الراحة والأمن لي؛ لذا علي أن أقول بغض النظر عما ستنتهي إليه حالي: أنا آسف لكم حقًا، ولكل من كنت سببًا في أي ضرر له!

كان (شربل) ينهي قصته المأساوية بتلك الطريقة العاطفية المثيرة للشجن، كان قد فرغ، تقريبًا، من قص كل شيء علينا، وتبقى فقط القرار النهائي بشأنه:

- إنني مستعد للمحاكمة، ومستعد لتحمل نتائج أفعالي.

كان الرجل معرّضًا، بطبيعة الحال، لمحاكمة دولية بعدة تهم، وسوف تتولى (الأردن) و(الولايات المتحدة)، ودول أخرى، توجيه قائمة تهم ضده، لكن قيادتنا كان لها رأي آخر، فقال له السيد (قاسم):

- الدكتور (شربل)، أنت شاهدنا!

كانت تلك مفاجأة مذهلة، حتى إن نصف الآلي الذي يجلس أمامنا، انتابه انفعال بشري طبيعي وقوي للغاية، وتساءل بدهشة شديدة لم يستطع أن يخفيها:

- ماذا؟! ألن تحاكموني؟!

أوماً السيد (قاسم) إليه بالإيجاب، وهو يتسم له ابتسامة صادقة، فتورد وجه (شربل) وهتف بحرارة:

- أشكرك يا سيدي.. أشكركم من قلبي!

كنت أتابع تلك المحادثة العاطفية، ولكن الإحساس بالامتنان، وتقدير عوامل الشفقة، لم يصرفني عن أن أسأل (شريل) السؤال الذي يلح علي منذ وقت طويل:

- الدكتور (شريل)، ماذا عن البيض الفاسد؟! فيم كنت تستعمله بالضبط ولماذا؟!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقظة دافئة شملتني صبيحة اليوم التالي..

كانت (ديالا) هي من أيقظتني بصوتها المنعم، المحبب إلي، وقدمت لي إفطارًا ضخماً من الإندومي بالبيض.

تقريبًا قامت هذه المرأة الجميلة بشراء كل كيس إندومي في المملكة، وأعدته بطريقتها الخاصة، إنها تضع روحها في الطعام الذي تصنعه، فيحمل نكهة خاصة، مزيجًا من المذاق الرائع، والعطر المحبب، ورحيق الأزهار، وشقشقة العصافير وقت الفجر.

استمتعت بطبقي جدًّا، وطلبت المزيد، فلَبَّتْ حبيبتني طلبي بسعادة ومحبة، لكنني، ونحن على تلك الحالة، تلقيت اتصالًا ذهنيًا من السيد (قاسم)، كان اتصالًا مفاجئًا وطارئًا؛ لذلك تركت بقية إفطاري ونهضت معتذرًا بعذر غير حقيقي.. لم تعلق (ديالا)، أما ولدي (كريم)، فقد انحنى برأسه كله حتى كاد يقحم وجهه في طبقه، وهو يغمغم بشيء ما لم أستطع أن أفهمه، لم أتوقف لأسأله عما يقول؛ لأن السيد (قاسم) كان يصيح في رأسي قائلاً:

- (سامر)! لقد حطموا شقة (ديمتري)، وعطلوا (فايو) عن العمل!

توقفت مكاني، قبل أن أصل إلى غرفة المكتب، لأختلي فيها بنفسي، وأجري التواصل الذهني المطلوب.

بقيت عاجزًا لبرهة عن فهم ما يقال لي، غير أن صوت السيد (قاسم) جاء ليكرر علي بفزع يتعارض تمامًا مع طريقته الرصينة، التي تستهين بالصعاب وتصمد في وجه الأخطار.. أخيرًا أجبته، بعد أن تغلبت على الدهشة التي أجمتني، وثلت تفكيري للحظة:

- ماذا تقول يا سيدي؟!!

تجاهل الإجابة عن سؤالتي، وقال لي بتوتر:

- (سامر)! لا تغادر منزلك اليوم، وقم بحماية أسرتك! أعتقد أنهم بدءوا في تعقبنا!

كان ذلك آخر شيء تمنيت سماعه، فارتجفت أعماقي، وأنا أسمع ذكر أسرتي يأتي وسط الكلام، وأتخيل (ديالا) و(كريم)، وهما يتعرضان لهجوم من مخلوق خفي، لا يمكن رؤيته، ويغمد سكينًا طويلًا في صدريهما، مثلما فعلوا مع الدكتور (شربل)، التعيس الحظ!

انتفضت وأنا أنهي الاتصال، دون حتى أن أستأذن من رئيسي، وهرعت إلى غرفة الطعام، كانت (ديالا) و(كريم) لا يزالان هناك، فناديت زوجتي، وانتحيت بها جانبًا، قلت لها بضع كلمات جعلت وجهها يشحب، وأنفاسها تتسارع، وأتجهنا، أنا وهي، صوب ابنا، الذي لا يزال يركز عينيه في طبقه، دون أن يأكل منه سوى لقيمات محدودة، وأمسكته من ذراعه، وجذبتة نحوي برفق، وقلت له محاولًا الاحتفاظ بهدوئي وثبات أعصابي:

- حبيبي، هل تلقيت تدريبات الطوارئ قبل ذلك في المدرسة؟! أقصد إنذار الحريق، والزلازل، وما إلى ذلك؟!

أوماً (كريم) برأسه إيجابًا، وقد بدأ حماسه يشتعل بقوة، فقلت له متظاهرًا بالمرح:

- سوف نكرر هذا التدريب هنا في البيت.. اليوم يا حبيبي!

صمت الولد للحظة، ثم تساءل وعيناه تشعان فرحًا:

- والمدرسة؟!

ردت (ديالا) وهي تأخذه من يده، وتتجه به إلى غرفة نومنا:

- لا مدرسة اليوم! سأحدث معهم عبر الهاتف وأحصل لك على إجازة سريعة!

كان (كريم) طفلًا مجتهدًا، لكنه، كأني طفل آخر، كان يحب التخلص من المدرسة، من حين لآخر؛ لذلك وافقت خطتنا هواه ومزاجه، فأخذته هو و(ديالا) إلى غرفة النوم، وبمجرد أن أدخلتهما فيها، حتى هرعت صوب الهاتف، وطلبت السوبر ماركت، الذي نتعامل معه، وسجلت طلبية مستعجلة جدًّا:

- بيض فاسد! أريد كل البيض الفاسد الذي لديكم!

لم تفهم الموظفة طلبي، أو ربما ظننتني مختلًا أو متطفلًا، يسلي نفسه بمضايقة الناس، في مثل تلك الساعة المبكرة، غير أنني كررت على مسامعها بحزم شديد:

- يا أنستي، من فضلك سجلي طلبي، وأريد أن يتم تجهيزه فورًا! وسوف أدفع مقابل التوصيل والخدمة المستعجلة!

أغلقت الاتصال، ثم هرعت عائداً إلى الغرفة التي حبست فيها زوجتي وولدي، وقد عزمت على أن أحارب الكون بأسره اليوم، إذا لزم الأمر، لأحميها وأدافع عنهما، مهما كان الثمن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- إن من يتعرضون لتلك التجارب الغربية لا يسلمون من الأذى النفسي يا سيدي.. هل سمعت عن تجربة (فيلادلفيا) الغامضة؟! يؤمن الكثيرون أنها كانت كذبة، وتلفيقاً رخيصاً، لكن أهم جزء فيها هو ما قيل إنه حصل للبحارة والقباطنة الذين أجريت عليهم التجربة المروعة، لقد أصيبوا بالجنون، ومات كثير منهم في ساعيتها، والبقية انتحروا أو اختفوا.. حسناً، لا يمكننا تأكيد إن كان هذا حصل فعلاً، رغم أنني ومن خلال اتصالي برجال علم أمريكيين، مارسوا وشهدوا على أغرب التجارب، وأكثرها وحشية، وبعيداً عن الاشتراطات الإنسانية، أستطيع أن أخبرك أنني لن أستغرب مطلقاً لو كان كل هذا حدث بالفعل!

- هل تعني أن شيئاً مشابهاً حصل في تجربتكم؟!

- تقريباً! فقد أصيب جميع الرجال، الذين أجريت عليهم تجارب الإخفاء، بواسطة المادة الجديدة، بنوع غريب من الفوبيا، والمخاوف النفسية!

- مثل ماذا يا دكتور (شريل)؟!

ابتسم (شريل)، الذي يبدو أن هذا الجزء من القصة بالذات يمتعه ويسعده، وقال بتلذذ طفولي:

- بعضهم صار يخشى الماء، ويرفض غسل جلده، آخرون أصابهم وهم المرض، وبعضهم أصبح يظن نفسه عنكبوتاً أو نيزكاً ضخماً! لكن المدهش أنهم جميعاً أبدوا صدمة شديدة، ورغبة قوية في الفرار، حينما يقتربون من أي غرض، يحوي عصيات السالمونيلا!

- عصيات السالمونيلا؟!

- نعم! بدوا وكأن لديهم حساسية شديدة تجاه وجود تلك العصيات الممرضة، أظهروا رد فعل شديد، وكأن بوسعهم التقاط رائحتها أو الإحساس بوجودها بشكل ما.. أجرينا مئات التجارب عليهم، والنتيجة كانت كلها واحدة: إن السالمونيلا عدوتهم اللدود!

فكرت في ذهني للحظة، ثم سألته باهتمام شديد:

- لذلك كنت تحيط نفسك بالبيض الفاسد يا دكتور؟!

ابتسم باستمتاع وهتف:

- نعم!

- لكنهم وصلوا إليك في النهاية.. أي أن سلاحك ليس ناجحًا في كل الحالات.

- أبدًا.

قالها (شربل) بكل ثقة، ثم أضاف:

- لقد وصلوا إلي في المرة الأولى بينما كنت قد استنفدت مخزوني من البيض الفاسد فجأة، وقررت الذهاب لشراء غيره، لكنهم أدركوني بهجومهم قبل ذلك!

وطبعًا في المرة الثانية كان في غرفة الرعاية الفائقة بالمستشفى، أي أن فرصة وجود سلاحه العجيب بقربه لم تكن متوافرة بالمرة!

ترى هل كان (شربل) يخدعنا لآخر مرة..

أم إنه يقول الحقيقة مثلما تعود، منذ أن عقد العزم على أن يكون حليقًا لنا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حينما دخلت (ماري)، وهذا هو اسمها، على سيدها (إيليتش)، وجدته ملقى على الأرض.

لقد عرفت منذ فترة أنه ضدهم، وأنهم يتحينون الفرصة للتخلص منه، وعقابه بطريقة مهينة!

في الحقيقة كان الرجل فظًّا معها، مثلما كان مع بقية الناس، وكثيرًا ما وجه إليها العبارات المسيئة والعييفة، من خلال نظامه المعقد اللعين، لكنها، على عكس الآخرين، كانت تفهمه، وربما تحبه أيضًا!

النقطة الأخيرة كانت مثار حيرة لها؛ لأنه لم يكن لدى (إيليتش) مقومات بشرية طبيعية، كي تعتبره رجلًا يستحق أن تسقط في حبه، والأنكى أنه لم يكن يملك مقومات إنسانية كذلك، فقد كان كريهًا ومؤذيًا ومتسلطًا، لكن شفقتها الشديدة نحوه، بسبب حالته القاسية، ترجمها عقلها أنها حالة حب وهيام!

لكن (إيليتش)، على الرغم من كل شيء، كان يثق بها دون الآخرين جميعًا؛ ولذلك فقد حملها، منذ وقت طويل، تلك الأمانة الثقيلة، فنقل إليها، من خلال نظام (ACC) الخاص به، تلك الرسالة، وأمرها بحفظها عن ظهر قلب:

- (ماري)! إذا ما تعرضت لأذى، أو أوقع بي هؤلاء الأوغاد، فعليك تمرير هذه الرسالة إلى العناوين الإلكترونية الخمسة، التي سجلتها في ذاكرة نظامي السرية!

كانت العناوين الخمس، بغض النظر عن أسلوب (إيليتش) المعتاد، هي لرئيس المخابرات العلمية الأمريكي، ولرئيس مجلس الأمن القومي الأمريكي، ولشخص مجهول يحمل اسمًا مشفّرًا هو (قاذوقا)، ولشخصين آخرين، لم يخبرها أبدًا بهويتهم!

وكانت الرسالة بوضوح شديد، تفضح مخطط عصاة السيطرة على العالم، وأسماء المسؤولين، في كل دولة، الذين وافقوا على التعاون معها، نظير مبالغ ضخمة ومنافع أخرى، ونقاط تجمع هؤلاء المحاربين غير المرئيين، والوسائل التي يستعملونها للتسلل، وتنفيذ عملياتهم بسرية تامة، وأخيرًا عدة شيفرات تضمن تدمير نظام اتصالاتهم كله، وتمنعهم من التجمع أو الاتصال ببعضهم بأي طريقة كانت!

كانت تلك الرسالة تحوي كنزًا من المعلومات، ولم يكن على (ماري) سوى تمريرها إلى العناوين المحفوظة.

كانت هذه مخاطرة عظيمة، لكن المرأة المخلصة، والتي تتمتع بقدر كبير من حب تعذيب النفس فيما يبدو، قررت المخاطرة من أجل تنفيذ رغبة (إيليتش) الأخيرة، خاصة بعد أن رآته ملقى على الأرض، على تلك الصورة المهينة، وبعد أن عرفت أنهم يخططون لحرمانه من الدعم التكنولوجي لحالته الميئوس منها، وتركه يقضي بقية حياته جثة هامدة على الأرض، رغم أن الجزئية الأخيرة كان فيها نظر؛ لأن الرجل اختار لنفسه مصيرًا مختلفًا، في حالة إذا ما تعرض للعقاب الذي يخشاه من جانب أصدقائه وحلفائه السابقين!

لم يكن (إيليتش) يملك الآن سوى نظرات عينيه، ليعبر بها عن رغباته؛ لذلك نظر إلى (ماري) وهو لا يزال على الأرض، فأومات برأسها نحوه، وغادرت للحظة، قضتها في المكتب الخاص بها، حيث مررت الرسالة الإلكترونية السرية، التي اتخذ الرجل كل احتياطاته بحيث لا يتمكن أعداؤه من تعقبها، أو إيقاف تمريرها، ثم عادت لتبتسم له ابتسامة انتصار صامتة، وكان عليها الآن أن تنفذ الجزء الأخيرة من خطة الإنقاذ، حيث إنها بهدوء شديد، أخرجت مسدسًا صغيرًا جدًا من حزامها، كانت تخفيه ببراعة، ووضعته على جبهة (إيليتش)، الذي نظر إليها نظرة صادقة بامتنان، ثم ضغطت الزناد!

وبرغم أنه لم يصدر أي صوت عن السلاح، المزود بكاتم صوت، إلا أن الرصاصة اخترقت جبهة (إيليتش)، لتفتت دماغه من الداخل، ثم تخرج من الناحية الأخرى، بعد أن أدت مهمتها العظيمة.

رقد (إيليتش) بعينين مفتوحتين على اتساعهما، فنظرت إليه (ماري) بنظرات خاوية، ثم انحنت عليه، لتطبع قبلة سريعة على خده الشاحب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الساعة الثامنة إلا الربع صباحًا..

أعلن التلفزيون الأردني الرسمي، في بيان عاجل، عن عطل مفاجئ ضرب خدمات الإنترنت في البلاد، وانقطاع كافة الخدمات الإلكترونية، وتوقف مواقع وتطبيقات التواصل الاجتماعي بأكملها، كما أعلن عن توقف العمل في المصارف ومكاتب البريد ومراكز الاتصالات حتى إشعار آخر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بقلق وسرعة، حصنُ جميع غرف وفتحات المنزل.

أخذت أدور لأغلق كل نافذة بإحكام، وأغلقت الشرفتين الكبيرتين المطلتين على الشارع الأمامي، ثم اتجهت صوب الحمام لأتأكد من إغلاق نافذته الصغيرة.

كنت أفعل كل شيء وسلاحي في يدي، وكنت جاهزًا لإطلاق النار في أي لحظة أستشعر فيها أقل قدر من الشك، أو الشعور بالخطر، وبينما أنا أقوم بذلك، دق جرس الباب، فتحفت كل حواسي، وتحذبت أذناي، وكاد شعر رأسي يُقَفُّ، لكنني، وحين تذكرت طلبية السوبر ماركت، هدأت واسترخيت قليلاً، اتجهت صوت الباب، ومسدسي لا يزال في يدي متأهبًا للإطلاق، وفتحته فتحة صغيرة جدًا، ومن خلالها رأيت وجهًا أسمر لعامل توصيل الطلبات، وقد بدا على ملامحه الدهشة من الطريقة التي استقبلته بها، مددت ذراعي من خلال فتحة الباب الضيقة، وتناولت منه عدة حقائب بلاستيكية ثقيلة الوزن.. كانت الرائحة الكريهة تفوح من داخلها بشكل خفيف، فأخذت الحقائب ووضعتها بجوار قدمي، ثم قدمت للعامل رزمة من العملات الورقية، لم أكن أعرف قيمتها بالضبط، ولم أهتم بمعرفة ذلك!

ناولته المال، فكاد يعلق بشيء ما، لكنني سارعت بإغلاق الباب في وجهه برفق، وعدت إلى الداخل لأبدأ في استعمال سلاح الدكتور (شربل) العجيب..

أغرب طريقة لتصيد ودفع المعتدين في التاريخ:

البيض الفاسد ذو الرائحة الكريهة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في شقته راح (ديمثري) يمارس حياته اليومية كعادته..

كان قد تلقى التحذير الذي تم تعميمه على جميع أعضاء الفريق، لكنه، وكعادته أيضًا، استقبله باستهانة واستخفاف.

كان يمارس طقوسه اليومية العادية، حيث قدم اللحم الطازج لكلابه، والطعام المجفف للقطط، وجراد البحر للبومة والغرابين، وسمكتين كبيرتين للبطريق، ووزع العشب اللين على أرانبه.. فعل كل ذلك وهو يصفر، ويعبث بخصلات لحيته الناعمة الكثيفة.

كان في حالة مزاجية رائعة، كان مستبشراً للغاية بقرب انتهاء قضية (المتسللون) السخيفة تلك.

لقد كره هذه القضية منذ بدايتها، وساءه أكثر أنهم أجبروه على استعمال (فايو) العزيز بطريقة تمثل تقيلاً من قدر نصفه الآخر العزيز، والآن يأتون ليحذروه من أنه قد يكون مستهدفاً!

مستهدف ممن؟! ولماذا؟!!

إنهم حمقى!

كان (ديمتري) يمارس نشاطه الاعتيادي، غير منتبه إلى حركة خفية في شقته، لم يكن هناك أي صوت، أو دلائل على وجود مقتحم أو دخلاء، لقد غادر الرجل شقته في السادسة صباحاً ليشتري لوازم وجبة الفطور الضخمة المتنوعة لأسرته الكبيرة، أسرته العزيزة، ونسخة من جرائد الصباح.

لم يلق نظرة على جرائد الصباح، لكنه انشغل بتوزيع محتويات الوجبة، وفي الحاليتين ترك باب شقته فترة معتبرة مفتوحاً، بينما هو يغادر، ويعود مرة أخرى.

كان مهملاً بطبيعته؛ لذلك لم يول الأمر اهتماماً كبيراً، حين انتبه أخيراً أن (فايو) بقي صامتاً وقتاً أكثر مما يجب!

- هلولوا! يبدو أنه يحتاج إلى تشحيم!

كان يمزح بالطبع، لكنه، وحين بدأ القلق يساوره أخيراً، ترك كل شيء في يده، واقترب من (فايو)، وبدأ يتفحصه باهتمام، وبينما هو مدير ظهره للمشهد كله، أحس بشيء يلمسه يحذر من الخلف!

انتصب واقفاً بسرعة، ومكنته سرعة بديهته من إدراك الأمر في ثانية، ووقتها بسرعة مذهلة ألقى بنفسه إلى الخلف، فأحس بشيء حاد ينغرز في كتفه!

كادت الضربة تصيب صدره، لكنه تجنبها بمليمترات قليلة، عاد الشيء، غير المرئي، لمهاجمة (ديمتري) فركض الأخير نحو أعماق الشقة، وأغلق باب الحمام على نفسه، وهو في الداخل سمع شيئاً يحاول فتح باب الحمام من الخارج، فهرع (ديمتري) صوب صيدليته الصغيرة، حيث كان يحتفظ بأدوية الصداع والقطن الطبي ومرهم الحروق، والحبوب المسكنة، والضمادات

المعقمة والميزان الحراري، الأغراض التقليدية في مكان كهذا، لكنه كان يحتفظ بشيء أهم، وفي الحقيقة لم يكن لوجوده معنى في صيدلية منزلية!

لكنه (ديمتري)، و(ديمتري) مختلف عن الآخرين..

قبض (ديمتري) على القارورة البنية، ذات البطن السمين والعنق الضيق، وحملها في يده بحرص شديد، بعد أن حرر الغطاء وألقاه بعيدًا، توقف للحظة خلف باب الحمام يستمع، ولما وجد الهدوء مستتبًا، فتح الباب فتحة صغيرة جدًّا، تطلع من خلالها ملقيًا ببصره تجاه بهو شقته المتسع، المكسب بأغراض لا آخر لها.

إن عليه، إن أراد أن يصيح رجل مخابرات حريصًا ودقيقًا، أن يتخلص من كل القمامة غير الضرورية، التي تحتشد بها غرف ومرافق منزله.. سوف يفعل ذلك في الغد! في الغد وليس اليوم!

المهم أن ينتهي اليوم على خير!

وضع (ديمتري) قدمًا واحدة خارج الباب، ولما أحس بشيء من الاطمئنان وضع الثانية، وخلال لحظة كان ينسحب خارجًا ببطء شديد، خطا خارج حمامه بحذر وهو ينظر إلى مواضع قدميه بحذر، وتقدم بضعة سنتيمترات في بهو شقته، ولكن بينما كان يحاول الوصول إلى الطرف الآخر من البهو، تنبه حذره الطبيعي، واستنفرت كل حواسه، تحدثت أذناه إذ ظن أنه يلتقط صوتًا واهنًا من خلفه، ربما كان صوت تنفس خفيًا جدًّا، أو خطوات متلصصة.

توقف مكانه بغتة، فشعر ببرودة ووجود ثقيل خلفه تمامًا، فاستدار بشكل سريع جدًّا، وكأنه آلة لا تنطبق عليها مقاييس وحدود الجسد البشري، ورمى بمحتويات قارورته أمامه مباشرة!

صدرت صرخة مروعة، وكأنها صوت حيوان مفترس حبيس، وكان ذلك هو كل ما يحتاج إليه (ديمتري)، فركض نحو التلفاز العملاق، وانتزعه من مكانه، وعاد ليضرب الشيء الذي لا يزال يزمجر بصوت وحشي، يثير الرعب في القلوب.

حمل (ديمتري) الجهاز الأثري، الذي أصر على الاحتفاظ به كتذكارة، وراح يضرب به، ويضرب دون توقف، حتى تهشم الجهاز تقريبًا، وسقط محطماً على الأرض، وتوقفت الصرخات المروعة فجأة، وكأنها كُتمت إلى الأبد!

لم يتبقَّ أمامه سوى شيء واحد، وهو أن يحاول رؤية وجه ذلك الذي هاجمه، وحاول قتله، بتلك السكين العملاقة، ذات النصل الحاد النحيل، والذي سقط على الأرض بصوت مدوّ، مدللاً على أنه كان ثمة خطر مهول هنا، وقد نجا منه (ديمتري)..

لحسن الحظ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الساعة الواحدة إلا الربع صباحًا..

(كولومبيا) / (واشنطن)..

استقبل مكتب رئيس المخابرات العلمية الأمريكية رسالة إلكترونية عاجلة وغريبة، تحوي معلومات مذهشة حول القضية الغريبة، التي جرى إطلاق اسم (المتسللون) عليها.

فورًا تم تمرير الرسالة، ثم تصعيدها إلى أعلى المستويات في الإدارة الأمريكية، وكذلك إرسال بعض البيانات، التي تحتويها الرسالة، إلى بعض الدول الصديقة، والتي يشملها التنسيق الجاري حول تلك القضية، بينها وبين السلطات الأمريكية ذات الصلة!

وخلال نصف ساعة، وبسرعة مذهشة، بدأت حملة مdahمات، واقتحامات، واعتقالات جماعية، في عدة دول، غير (الولايات المتحدة)، في (أوروبا) و(آسيا) و(إفريقيا)، ومن بينها (المملكة الأردنية الهاشمية).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الساعة العاشرة إلا سبع دقائق..

أذاع التلفزيون الأردني الرسمي بيانًا عاجلًا ثانيًا، أفاد فيه بعودة حركة الاتصالات، وخدمات الإنترنت، وكذلك كافة الخدمات الإلكترونية، ومواقع وتطبيقات التواصل الاجتماعي، إلى العمل، واستئناف العمل في المصارف ومكاتب البريد ومراكز الاتصالات كسابق عهدها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لقد نجا جميع أعضاء الفريق، عدا السيد (ديمثري)!

قفزت من مقعدي حين سمعت تلك العبارة الأخيرة، وهتفت في وجه (يوسف سليمان)، الذي كان يحدثني عبر الهاتف المؤمن، وهو يضحك ساخرًا، وصرخت فيه بقلق شديد:

- هل وصلوا إليه؟! ماذا حدث؟!

أجابني محاولًا تهدئتي وطمأنتي:

- لقد وصلوا إليه لكنهم لم ينجحوا في قتله، لقد نجا هذا المحظوظ كالعادة، لكنه أصيب ببعض الحروق جراء تناثر حمض الكبريتيك على أجزاء من يديه وقدميه!

كدت أنهار وأنا أسأله:

- حمض الكبريتيك الحارق؟! ماذا حدث بالضبط؟!

أخبرني (يوسف) أن (ديمتري)، الذي لم يصدق ما قاله الدكتور (شربل) حول البيض الفاسد، وقدرته على إبعاد المحاربين الخفيين، تعرض لهجوم في شقته، لكنه قاوم مهاجمه، وتمكن من الإجهاز عليه، بحرقه بقارورة كاملة من حمض الكبريتيك، لكن الحمض تطاير عرضًا ليصيب أجزاء من بشرة (ديمتري) المكشوفة.

لكن الأمر ليس خطيرًا جدًّا!

- إنهم في المستشفى الآن، وسوف يرقعون الأجزاء التالفة من جلده.. سينجو فلا تقلق، على الأقل سيكفي ذلك لكي يمتنع عن التباهي بالشبه بينه وبين (راسبوتين) بعد اليوم.. فلم يكن لدى راسبوتين يدان وقدمان مرقعتان! كنت أعلم أن (يوسف) لا يحب (ديمتري) كثيرًا، غير أنني كنت متأكدًا كذلك أنه لا يتمنى له أي شيء مؤذٍ، وأن سخريته منه حسنة النية، ولا تحمل أي نوايا سيئة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انكشفت قائمة العملاء، والمسؤولين الخونة الفاسدين، الذين سمحوا باستعمال أراضي بلادهم لإجراء التجارب الخاصة بمشروع (المتسللون)، وكان عددهم كبيرًا جدًّا، وكمية الأموال التي حصلوا عليها، نظير تلك الخيانة العظمى لبلادهم، تثير الدهشة من فرط ضخامتها.

كان من أكثر هؤلاء العملاء الذين حصلوا على أموال ومنافع نظير الإضرار العمدي ببلادهم، وتعريضها للتسلل من مجهولين، لهم أغراض ونوايا غير معروفة، المدعو (ياسر حمدان)، الذي تم اغتياله في العاصمة الأردنية (عمّان)، منذ بضعة أيام!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



راح (كريم) يركض فوق الرمال الناعمة، وهو يصرخ عاليًا بمرح شديد، وعلى الأرض استلقت (ديالا)، التي تركت شعرها الجميل يتطاير حول رأسها، الذي عقدت منتصفه بعصابة وردية غير محكمة، وتركت نفسها للشمس اللطيفة والهواء الجميل يعيدان بناء جسدها الفاتن، ويمنحانها اللون البرونزي الذي تريده: - إنك لست في حاجة إلى اللون البرونزي يا (ديالا)، فأنت فاتنة بكل الألوان!

ابتسمت لي، وهي تضع مزيدًا من الكريم الواقي من الشمس على ذراعها اليسرى، وتهتف بحرارة:

- شكرًا لك يا حبيبي! لكنك لن تحرضني بلطفك على المغادرة، فسوف نقضي إجازتنا كلها هنا، لا مفر لك!

إن أسوأ شيء في الدنيا أن تتزوج امرأة تفهمك تمامًا، تفهمك أكثر منك، لكن ليس عندما تكون تلك المرأة هي (ديالا): - دائمًا تفسدين محاولاتي لخداعك.. دائمًا!

ابتسمت لي ببساطة، بينما تعالت ضحكات (كريم)، التي تسخر مني، فكرت في أن أجري خلف هذا الولد، وأقضمه من أذنه؛ عقابًا له، لكن ذهني انصرف إلى اللغز الوحيد الذي بقي مستغلًا في تلك القضية، التي انتهت أخيرًا.

النقطة الوحيدة التي بقيت بلا حل، بعد أن تمكن الأمريكيون من تحديد شخصية الدكتور (لودج) الحقيقية، وكانت مفاجأة للجميع، وأولهم (شربل) المسكين، الذي أعلمنا بقراره بأن يقضي في (الأردن) بقية حياته، وهي شخصية المخترع الحقيقي لفكرة الرجال غير المرئيين، الرجل الخلاسي، مختلط الدم، الذي زار (لودج) في ذات ليلة، ليقدّم له فكرته المجنونة، ومعها كل ما يثبت إمكانية تحقيقها: - لن نعرف شخصيته الحقيقية أبدًا، فقد أقر (لودج) بأنه غدر به وقتله، وتخلص من جثته بإذابتها بالحمض، وتخلص من أوراقه وهويته الشخصية بنفس الطريقة، ولم يترك خلفه أبدًا أي تسجيل لحقيقة شخصية الرجل المجهول.. وهذا يعني أمرًا واحدًا مؤكدًا: أننا لن نعرف من هو أبدًا!

كان ذلك ما قاله لي رئيسي السيد (قاسم داود) حين أخبرته عن تلك النقطة التي تؤرقني، وكانت إجابته منطقية وسليمة من حيث الشكل والمضمون، لكنني فكرت في نفسي كثيرًا: لقد كان (لودج) رجلًا خائنًا وكاذبًا ولعينًا، فهل من العسير أن يكون كاذبًا في تلك النقطة أيضًا؟!

أليس من الممكن أن يكون الخلاسي ليس له وجود على الإطلاق، وأنه
شخصية من اختراع الدكتور (لودج)، ليخفي كونه صاحب الاختراع الحقيقي؟!
الأسوأ من ذلك؛ أن يكون ذلك الخلاسي المختلط الدم لا يزال حيًّا، ليواصل
تجاربه، وإنتاج محاربه الخفيين في مكان ما من العالم!
احتمال مخيف، لكن هواء البحر الميت النقي لقادر تمامًا على تنقية ذهني،
ودفع المخاوف بعيدًا جدًا عني!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



متميزون للكتب النصية



لينك الانضمام الى الجروب - Group Link

لينك القناة - Link

الفهرس..

مقدمة..

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

- 8 -

- 9 -

- 10 -

- 11 -

- 12 -

- 13 -

- 14 -

- 15 -

- 16 -